

مكتبة محمد علي القننى

الطبعة: عبد الصمد

الحرب الهاشمية وقايتين الاولى الاسلامية

الطبعة: عبد الصمد



الحزب الهاشمي

الناشر : مكتبة مدهبولي الصغير

٤٥ شارع البطل أحمد عبد العزيز

تليفون : ٣٤٧٧٤١٠ - ٣٤٤٢٢٥٠

ميدان سفنكس ت : ٣٤٦٣٥٣٥

رقم الإيداع : ٩٥ / ٩٣٤٩

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الرابعة : ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

المدير الفني : محمد الصباغ

سيد محمود القمني

**دور الحزب الهاشمي
والعقيدة الحنفية
في التمهيد لقيام دولة
العرب الإسلامية**

مدخل
لقراءة الواقع الاجتماعي
لعرب الجاهلية
وإفرازاته الأيديولوجية

الناشر: مدهولي الصغير

الإهداء

إلى ينبوع الحنان
سلوي (نفرتاري)
ابنتي..
سيد القمني

مقدمة لابد منها:

لم يكن جديدا ولا غريبا أن يلتبس الهجوم علي هذا الكتاب زيه المعتاد، فالرأي الواحد الأحد هو الصواب الأوحد، وما خالفه زشدة ومروق، ومن قال بما يبدو لهم مخالفا يصبح كافرا مستباح الدم، حتي لو كان ذلك المهاجم ممن استطابوا لأنفسهم لقب الإسلام المستنير، حيث ينكشف الأمر في النهاية بجلاء أن الأدلوجة بأحاديثها ووحدانياتها وتفرداها السيادي لن تقبل إطلاقا برؤية جديدة، ولا برأي آخر، ولا بقراءة أخرى غير تلك القراءات التي رأت علي تاريخنا المتناثب المسترخي طوال الأربعة عشر قرنا السوالف، فهي منظومة الصدق المطلق التي لاتري الآخر إلا عدوا يجب تصفيته، أما من قدر له أن يولد داخل قبيلتها فهو خاضع بالضرورة القاهرة راغم الأنف، وما أيسر أن تكال له تهم المروق والكفر إن حاول تحريك الأسن في المنهج أو التاريخ، وفي هذه الحال يوجد من يقوم بتنفيذ العقوبة المطلوبة باستبعاده الفوري من الكون الذي صاندروه ليصبح كونهم وحدهم، وأن مهمتهم تطهيره من الآخرين كلما أمكن ذلك، بينما يضجون بصراخ العاجز المستباح إن تعرضوا لأي لون من الاضطهاد، إنهم يطلبون حرقتهم كاملة باستخدام لاءات الحرية التي قعدوا كفاح الإنسان طوال القرون الماضية، ويجيدون استخدام بنودها لفكريس حق إطلاق أيديهم وحدهم لتمارس القمع والقتل والتصفية، وكبح الرأي الآخر وإخراس كل الأصوات إلا صوتهم هم وحدهم.

ونموذج لهذا المنهج سيجد القاريء هنا نفسه إزاء حالة مثالية من بعض نماذج اخترناها تكيل الاتهامات التي تدور جميعا حول ضمير الكاتب وسريته، تهيدا لتطبيق قانون المخالفة الذي يقضي بعقوبة التصفية الفورية، ذلك المنهج الأوحد والنغمة الواحدة المتكررة التي قتلت فينا العقل وملكة النقد طوال تاريخ تراكمت فيه أبشع ألوان اضطهاد الإنسان وحرية وفكره.

وسيجد القاريء اتفاقا واضحا علي اتهام الكاتب في عقيدته وديته، رغم أن اختيار الإنسان لعقيدته أمر يجب أن يكون خارجا تماما عن معنى الاتهام، ولايصح اتهامه إلا إذا كنا لازلنا نعيش حالة القبيلة الأولى التي يتماهي جميع أفرادها في ذات سلفها وربها، ولو أخذنا بأنه من الممكن أن نحاكم إنسانا بحسبانه متهما، لأنه يقبل كذا من قواعد الدين أويرفض كذا، فإنني شخصيا أرفض علي الإطلاق ليس الاتهام، بل مجرد التحدث بشأن ما أعتقد فالأمر يخصني وحدي، ولايحق لأحد أياكان أن يسألني عنه، ناهيك عن أن يحاسبني عليه، ولا أجد فيما أعتقد أيا كان لون الاعتقاد تهمة، لأن التهمة في تلك الحال ستلحق من يسوقها، وتتهمه هو في درجة اقترابه من معني الإنسانية ذاته، أما تنفيذ قرار التصفية الأحق في كاتب، فهو أمر لايشغلني إطلاقا، لأن الكتاب لايموتون، وحين يحدث ذلك سيكون شهادة معمة بالدم علي زمن أسود، وعندها سيكون لما كتب انتشاره الأوسع، بل وتخليده في ذاكرة مستقبل لاشك سيكون أفضل، لأنه في النهاية لن يبقئ سوي ماينفع الناس، ويذهب الباقي جفاء في مزيلة التاريخ.

ورغم أن كتابنا هذا كتاب في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي وليس كتابا في الدين أو أي من علومه، فقد تم تصنيفه تصنيفا آخر، ولم يتسع أفق المهاجمين خارج دائرة ماقد تؤدي إليه مثل هذه الكتب، من اشتداد الزلزلة تحت كراسيهم ومصالحهم، ولم يكن لنا غرض إطلاقا سوي فتح نافذة أطل زمانها، إزاء رتل من المصنفات يملأ أرفف المكتبة العربية، يكرر ويزيد في تكرار وإملال لذات المقولات، بنغمة واحدة وخط واحد من تفاسير وشروح التفاسير وتفسير الشروح وتعقيبات علي الشروح والتفاسير.. الخ، وهي النافذة التي أردنا أن نطل منها بقراءة علمية علي الفرز الذي أدري إليه جندل أحداث المرحلة القبيل إسلامية، وقراءة أوضاع جزيرة العرب آنذاك الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وهو الفرز الذي كشفناه مطلبا للتوحد القومي بقيادة نبي مؤسس لدولة واحدة مركزية.

ويبدو أن هذا اللون من القراءة قد صدم مقولاتهم الثابتة، حتي أنهم لم يروا فيه سوي المروق، الذي يبدو أنه كان حكما تأسس علي عدم قدرة قبول الأمر باعتباره أمرا اعتياديا تسبقه مقدمات لابد أن تؤدي إلي نتائج، يقبلها العقل ومنطق الواقع، بعد أن اعتادوا علي منهج يري أن كل شيء يجب أن يظهر فجأة من عدم، غير مرتبط إطلاقا بواقع، ملغزا غير مفهوم، وبهذا فقط يكون مرهوبا ومخيفا ومحترما، المهم ألا يكون مفهوم الأصول وألا يكون منطقي أوطبيعي النشأة، وأن معرفة جذوره ومهداته ومناياته تخلع عنه حالته الانقطاعية، وتسحب عنه قطيعته

مع ماسبقه، ومن هنا كان لابد أن تستمر معاملته في طبيعته مع كل شيء إلا الغيب ولا يمكن تصوره إلا كذلك. رغم أننا لو استخدمنا منهج الدين ذاته بشكل أكثر احتراما للدين نفسه، ولله صاحب هذا الدين، لأدركنا أن فهمنا للدين سيكون أكثر جمالا وفهما عندما يكون الرب متسقاً مع ذاته، لا يخالف قوانين المفترض أنه هو واضعها، وأنه كي يتم المراد من رب العباد وقيام نبي الإسلام بدعوته، فإنه كان لابد من تمهيد الواقع كي يفرز نتائجه المنطقية التي تتسق مع تلك المقدمات، وتتفق مع كمال ذلك الرب، ذلك الكمال الذي يفترض اتساق قراراته مع قوانينه وسننه، ناهيك عما سيحققه مثل ذلك الفهم علي المستوي التربوي للعقل، لنخرج من حالة الركود البليد الذي ينتظر بكل سقم معجزات مفاجئة تعيدنا لعصر الفتوحات تتقدمنا جيوش الملائكة، تحت قيادة جبريل علي فرسه حيزوم.

ولأننا لانتصور إمكان حدوث المعجز الملفز، ولأحداث أمر جليل دون مقدمات موضوعية تماما تؤدي إليه وتفرضه، ولأننا لانتصور إمكانات، كسر قوانين الطبيعة الثابتة لأجل عيون أمة مترهلة، فلم يبق سوي أن نحاول إعادة قراءة ذلك التاريخ قراءة أخرى، تربط النص بواقع، وتعيد النتائج إلي مقدماتها وأصولها الحقيقية لا الوهمية، من أجل إعادة تشكيل بنية العقل ومنهجه، ومن أجل غد أفضل لأجيالنا المقبلة، ولتراثنا ذاته.

هذا، وقد اوردنا نماذج أخرى لكتابات أخرى تري في كتابنا هذا فتحاً جديداً في تاريخ الكتابات العربية .

سيد القمني

**نماذج من
الكتابات التي
تناولت هذا
العمل حال
ظهوره أول مرة**

هذه الدراسة

بقلم: **خليل عبد الكريم**

مجلة أدب ونقد عدد أغسطس ١٩٨٩،

القاهرة

.. هي من جانب تلقى ضوءاً مبهرًا علي الفترة المتقدمة علي ظهور النبي العربي محمد (صلي الله عليه وسلم)، والإرهاصات الأولى لنشوء دولة العرب الإسلامية بقيادته، ومن جانب آخر فهي لاتجاري غالبية المؤرخين القدامي (ما خلا ابن خلدون وقلة قليلة)، والمحدثين منهم حتي الآن، الذين لا يرون في التاريخ - علي عمومه - إلا مسيرة غيبية لاهوتية، تحركها إرادة الله تعالي - الذي هو في غني عن العالمين - ولا ينظرون إلي التاريخ علي أنه ظاهرة بشرية.

وأكدت الدراسة علي أن مؤلفها يمتلك باقتدار، نظرة موضوعية علمية، في معالجته لوقائع التاريخ، ودراسته لها، وتحليلها التحليل الصحيح، وردها إلي الأسباب المباشرة والتي تتفق مع المنطق والتفكير السليم، دون حاجة إلي اللجوء إلي الماورائيات والفوق منطقيات والأحاجي والألغاز.. وهذا المنهج العلمي المحض، الموثق توثيقاً شديداً، والاقترام الجريء الفذ لإنارة منطقة حرص من سبقوه علي أن تظل معتمة، هما اللذان أثارا علي رموز السلفوية الحديثة.. والدكتور القمني في نظري أحد الباحثين الجادين، المتروهبين للعلم، والمتفرغين له، والذين لم ينالوا ما يستحقونه من شهرة، لأنه لا يسعى إليها ولا يعيرها التفاتا، في الوقت الذي نري فيه أنصاف المتعلمين، ممن كل بضاعتهم (صم) النصوص وترديدها.. يشغلون الصحف والمجلات ومحطات الإذاعة وقنوات التلفاز، بمواعظهم المنبرية وأحاديثهم وخواطيرهم، وفتاواهم المستقاة من النصوص التي تجاوزها الزمن، وتخطاها الواقع المعاش، والتي ضلت طريقها إلي متاحف التاريخ وحفريات علماء الآثار.

قضية المناقشة

بقلم: فريدة النقاش

صحيفة الاهالي ٢٥ يوليو ١٩٩٠ القاهرة

«الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية» كتاب صغير الحجم كبير القيمة لمؤلفه الدكتور «سيد محمود القمني» هو واحد من أهم الإصدارات العربية المعاصرة علي الإطلاق وأن حجبته أهميته تلك الحالة الفوغاثية التي صنعها الظلاميون ومن لف لفهم، فهؤلاء يكادون أن يستأثروا بساحة الوعي الجماهيري ويحكمون قبضتهم عليها حتي يتراجع العقل وتغيب روح النقد وتصدأ أسلحته وتصبح قيادة الجماهير أسلس.

يعرض الكتاب ببساطة فذة للأسس الاجتماعية - الاقتصادية التي هيأت لقيام الدعوة الإسلامية وانتشارها، ويبين علي أوضح نحو كيف أن منظومة الأفكار والتصورات التي تولدت في ظل سرعات ضارية علي امتلاك طرق التجارة، أي امتلاك ثروة ذلك الزمان كانت وثيقة الصلة لا فحسب بالاحتياجات الروحية للعرب حينذاك، وإنما أيضا بنمو النزعة القومية الضرورية لتنمية الثروة وحمايتها، أي

بحاجاتهم المادية إلى وقف تعدد الأرياب والكعبات في حركة الوثنية قبل الرسالة في طريق تليبتها أي في طريق القومية ذاتها.

ويتتبع المؤلف تلك المسيرة الطويلة لعبد المطلب بن هاشم جد الرسول -صلي الله عليه وسلم- الذي تمتع بوعي سياسي وقومي عال حيث ارتبطت الوحدة القومية المنشودة لديه بالسعي لتأليف القلوب عند إله واحد وأخذ يدعو لإلغاء «التمائيل والأصنام وغيرها من الوهميات والشفاعات لأنه لا يقبل من أحد وساطة أو شفاعة إلا العمل الصالح».

وكان هذا العمل علي كل المستويات سياسية وعسكرية واقتصادية هو الشغل الشاغل للرسول العربي وهو يطور أفكار جده وأعماله التي شكلت تيارا قويا قبل ظهور الإسلام بفترة وجيزة، وذلك حين بلورت التوحيد بمعناه «الحنفي»، مستلهمة أسسها من ديانة إبراهيم الذي يعدده العرب أبا لهم، ويبين المؤلف كيف أن حرية الاعتقاد كانت عرفا مستنونا، عرفا حتمته المصالح التجارية في مكة، فكان المسيحي فيها يعيش إلى جوار «الحنفي» التي جانب اليهودي مع الصابي والزرادشتي وعبدة النجوم وعبدة الجن وعبدة الملائكة وعبدة الأسلاف وتماميل الشفعاء دونما قهر أو فرض أو إجبار حتى أن العبد كان يظل علي دين يخالف دين سيده.

إلى أن قامت دعوة محمد بتأليب العبيد علي أسيادهم من أرستقراطية قريش التي سرعان ما تخلص منها عبر سلسلة طويلة من الحرب والسياسة، من إتقان بناء التحالفات وفرضها حتي استقر أمر الدولة العربية الإسلامية الوليدة للبيت الهاشمي وتراجع نفوذ الأمويين من أبناء عمومته ليتأجج بعد ذلك الصراع التاريخي بينهما علي أسس اقتصادية اجتماعية جديدة خاصة بعد اتساع الدولة بالفتوحات وانتشار الرسالة الجديدة وعندما سبخت الفرصة للحزب الأموي انقض علي الهاشميين بضراوة واستولوا علي الحكم، وساعتها تجلت مشاعرهم تجاه بني عمومته في المجازر الدموية التي راح ضحيتها كل من أيد البيت الهاشمي.

إن «الحزب الهاشمي» هو علي حد تعبير الباحث الإسلامي خليل عبد الكريم «أقتحام جريء وقد لإنارة منطقة، حرص من سيقوه أن تظل معتمة وأن هذه الإضاءة المبهرة تدعونا لقراءة جديدة لوقائع التاريخ العربي الإسلامي وللتراث المكتوب والمسكوت عنه وتجعلنا أكثر شجاعة في الدعوة للإفراج عن كتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي»، ومقدمة في فقه اللغة العربية «للويس عوض» وسوسيولوجيا

الفكر الإسلامي لمحمود اسماعيل فجميعها اجتهادات تحمل بطريفة أوأخري بصمات المنهج العلمي الموضوعي الذي يرى في التاريخ ظاهرة بشرية ويفتح أفاقا واسعة للعقل الناقد ليتعرف علي الأسس الحقيقية لا الوهمية التي قام عليها صعود وانحيار الدولة العربية الاسلامية الأولى.

وقد أحسنت دار النشر صنعا حين قدمت الدراسة التي عكف عليها مؤلفها لثلاث سنوات متصلة ونشرها في أجزاء متفرقة لتضعها بين أيدي القراء والباحثين مادة خصبة موثقة تلهمننا قراءة جديدة وتسلحنا بالعلم والنقد في وجه الظلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رب لا تذر علي الأرض
من الكافرين ديارا. إنك إن
تذرهم يضلوا عبادك ولا
يلدوا إلا فاجرا كفارا﴾

صدق الله العظيم

بقلم: اللواء **عصام الدين أبو العزايم**

مجلة الإسلام ووطن، عدد ٥٢ - القاهرة

بين يدي الآن كتاب «الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية» للدكتور سيد محمود القموني أرسله إلينا الابن الأستاذ/ أحمد البدوي للرد علي ما جاء به من آراء وأفكار ضد الإسلام ونبى الإسلام. وبالإطلاع علي الكتاب نجد أن فيه ضربات خفية وظاهرة للإسلام وكعبة الإسلام ونبى الإسلام عليه الصلاة والسلام.

وإنني لا أنظر إلي الكاتب علي أنه من اليساريين أم لا. ولكنني أنظر إليه علي أن اسمه «سيد محمود»، ومادام هذا اسمه كان الأخرى به أن لا يضع السم في العسل، كما سنري في عرض كتابه - فقد جاء في ص ٩ بالكتاب أن عبد المطلب بن هاشم كان من ذوي النظر الثاقب والفكر المنهجي المخطط استطاع أن يفسر الظروف الموضوعية لمدينة مكة وأن يخرج من قراءته برؤية واضحة هي إمكان قيام وحدة سياسية بين عرب الجزيرة، تكون نواتها ومركزها «مكة» تحديدا برغم واقع الجزيرة المتشردم آنذاك ويؤيد ذلك بقولة عبد المطلب «إذا أراد الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء» وهو يشير إلي أبنائه وحفدته ويقصد الكاتب أن عبدالمطلب كان

قمنا بالرد علي هذا المقال في صحيفة مصر الفتاة، وقد أدرجنا الرد ضمن كتابنا (درب الزمان)

يسعى لإنشاء دولة هاشمية يكون هو ملكها ومن بعده أولاده، وإذا رجعنا إلي تاريخ العرب نجد أن العرب لا تقبل النظام الملكي وسيطرة الملك علي القبائل العربية لأن ذلك يجعل من عشيرة الملك سيادة علي بقية العشائر وهو ما تأباه أنفة الكبرياء القبلي وتتفر منه.

وقد ذكر الكاتب هذا المعني في ص ١٠ من كتابه فإذا كانت هذه صفات العرب، فكيف يحلم عبد المطلب بتأسيس دولة هو ملك لها يتوارث الملكية أولاده وأحفاده؟! فهذا الكلام مناقض بعضه لبعض. فعبد المطلب الذي وصفه الكاتب بما سبق أن أوضحناه من نوي النظر الثاقب لا يجوز له أن يحلم حلمًا أويطلب طلبًا يعلم أنه فيه استحالة التنفيذ وإلا كان وصفه غير ما وصفه الكاتب أي أنه رجل ذو أحلام وذو آمال لا تتفق مع الواقع القبلي العربي وبهذا لا يوصف بالذكاء ولا الفطنة.

ولقد وصف الدكتور طه حسين «عبد المطلب» في كتابه «علي هامش السيرة» بأنه كان «سمح الطبع رضي النفس سخي اليد حلو العشرة عذب الحديث قوي الإيمان تملك قلبه وتسيطر علي نفسه نزعة دينية حادة عنيفة، إلي أن قال أنه كان يتميز من بقية فتيان قريش في نكاثهم وفطنتهم وفي إباءهم وعزتهم ولكنه فيه دعة لم تكن مألوفة عندهم، وفيه شدة في الدين قلما كانوا يرضونها أو يبسمون لها. هذا قول الدكتور طه حسين في وصف عبد المطلب.

ولك أيها القاريء الحكم في ما كتبه الكاتب وما كتبه الدكتور طه حسين - والغريب أن الكاتب يسرد آمال اليهود وأحلامهم من أنتظارهم ملك داود عليه السلام مرة اخري إليهم ويربط أحلام اليهود بأحلام العرب بقوله: «أن هذا الحلم داعب خيال سراة العرب وأشرافهم حتي بدأ لكل منهم طيف زعامته للدولة الموحدة مشرقا في الخيال. ثم يوضح أن إزاء كل العوائق الواضحة والمحبطات السافرة للحلم وللأمل وللتوقع لم يجد الآخرون سوي الاهتداء إلي أنه لاحل سوي أن يكون منشئ الدولة المرتقبة نبيًا مثل داود، وعندما وصلوا إلي هذا فشا الأمر بسرعة هائلة بين العرب حتي اشتد الإرهاص بالنبي المنتظر خلال فترة وجيزة وأمن هؤلاء بذلك وأخذوا يسعون للمتوطئة للعظيم الآتي إلي أن قال لكن العجيب فعلا أن لا يمضي من السنين غير قليل حتي تقسم في جزيرة العرب دولة واحدة قادرة مقتدرة تطوي تحت جناحيها وفي زمن قياسي ملك الروم والعجم بعد أن أعلن حفيد عبد المطلب بن

هاشم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام أنه النبي المنتظر.

يا للعجب لهذا الكاتب الذي يجعل من الرسالة الإلهية رسالة بشر ويجعل من الإيمان بالله الواحد الأحد الإيمان بزعامة وملك، إنه بذلك لا يؤمن بالرسالة التي أرسلها الله إذ جعلها في قوله أحلاما ومصالح ومنافع تحققت علي يد حفيد عبدالمطلب كما يقول «والله إن هذا القول لم ينطق به كافر يعلن عداوته للإسلام ولنبي الإسلام عليه الصلاة والسلام. ماهذا الربط الذي يربطه بين أحلام اليهود وأحلام العرب، وما هذه الطعنات التي يطعن بها في رسالة الختم ؟

إن الرسائل كما هو معلوم تنقسم إلي ثلاث:

١ - الرسالة التي تنطوي في تكاليف الزعامة فتأتي الدعوة الإلهية لتمكين زعيم القوم من هدايتهم الروحية لأنه مطالب بقيادتهم في جميع الشئون.

٢ - الرسالة التي تقوم أمة من الأمم لحراستها في وجه الأمم الأخرى والمثابرة علي تذكرها بحاجتها إلي تلك الحراسة.

٣ - الرسالة التي ينتظرها القوم تحقيقا لوعود متعاقبة يفسرها كل منهم بما يبتغيه.

هذه هي الرسائل التي سبقت الإسلام وإذا نظرنا إلي الرسالة المصمدية -علي صاحبها الصلاة والسلام- نجد أنه لم يستغرقها مقصد من هذه المقاصد إذ لم تكن تكاليف الزعامة ولا الرسالة المقصورة علي منفعة أمة ولا تحقيقا لوعود منتظرة يفسرها كل واحد بما يبتغيه لأنها رسالة إلهية قوامها أن الله حق وهدى وأن الإيمان أعلي وأقدس من كل إيمان، لأنه إيمان بالحق والهدى.

فلم تكن زعامة الرسول -عليه الصلاة والسلام- علي قومه مناط تلك الرسالة لأنه أعلن أنه جاء بها بوصفه بشرا كسائر البشر عليه من أمانة وهداية ما علي الإنسان للإنسان زعيما كان أوغير زعيم.

ولم تكن منفعة الأمة العربية مناط تلك الرسالة، لأنها إيمان برب العالمين ولا فضل فيها لعربي علي أعجمي ولا قرشي علي حبشي إلا بالتقوي، ولم تكن مقضاة لوعود، لأن الإسلام لم يعد أحدا من العالمين بغير ما وعد به الناس كافة في جميع البقاع والأرضين.

مالهذا الكاتب يكتب عن سيد الخلق -صلي الله عليه وسلم- بهذا الاسلوب الذي إن دل قلميما يدل علي أنه لم يكتب كتابه هذا بأمانة التاريخ الذي بين يدي المسلم والكافر.

تعال معي أيها القاريء لنقرأ سويا أقوال غير المسلمين في وصف الرسول صلي الله عليه وسلم:

١ - يقول مايكل هارت وهو غير مسلم ولا يعرف إن كان نصرانيا أويهوديا أو ملحداء، ولكنه باحث أمريكي استعرض الرجال العظماء في التاريخ ووجد أن أعظمهم وأخلدهم بكل المقاييس الرسول محمد-صلي الله عليه وسلم- وكان أساس اختيار هؤلاء العظماء المائة هو شخص الرجل والأثر الذي تركه ومدى اتساع هذا الأثر وعمقه، وإن كان ولا يزال موجودا حتي اليوم، وقد رأي هذا المؤلف أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو أعظمهم وأعمقهم وأوسعهم أثرا، وأنه لم يحدث في التاريخ أن اكتمل دين بكل عناصره الفلسفية والأخلاقية والتشريعية سوي الإسلام، وأن هذا الدين قد كمل تماما في حياة صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام وانتصر في حياته واتسع بعد انتقاله حتي أصبح المسلمون ٩٠٠ مليون في جميع أنحاء العالم، من أجل ذلك كان الرسول - صلي الله عليه وسلم- أول الخالدين الذين ذكروا في كتاب «الخالدون مائة».

٢ - تقول دائرة المعارف البريطانية تحت مادة «محمد»:

محمد بن عبد الله مؤسس الدين الإسلامي ولد في مكة، وقليلون هم الرجال الذين أحدثوا في البشرية الأثر العميق الدائم الذي أحدثه محمد. لقد أحدث أثرا دينيا عميقا لا يزال منذ دعا إليه حتي الآن هو الإيمان الحي والشرعية المتبعة لأكثر من ١/٧ سكان العالم علي أن أثره التاريخي يكتب الأكثر، عندما نذكر أنه في أقل من عشرين سنة، منذ بدء دعوته، قوض دعائم إمبراطوريتين عتيدتين وهما الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية مؤسساً علي اتقاضهما حضارة جديدة. ولقد أرسى منذ جاء بدعوته التي هي عقيدة وشرعية قواعد بناء المجتمع الاجتماعية والسياسية، وقد أعقب موته أن سجل خلفاؤه الأحاديث التي رويت عنه وأدق

التصرفات والأفعال التي قام بها فاتخذ المؤمنون من هذه الأحاديث نبراسا ومثلا اعلى يحتذونه في حياتهم اليومية جيلا بعد جيل.

٣- يقول المؤرخ والفيلسوف الإنجليزي هـ. ج. ويلز في كتابه المختصر «تاريخ الإنسانية»: «كان يمكن لأي متنبئ تاريخي يستعرض حياة البشر في مستهل القرن السابع الميلادي أن يتوقع بحق أنه لن تمضي بضعة قرون حتي تقع كل أوروبا وآسيا تحت سيادة المغول والتتار إلي أن قال: ولكن هذا المتنبئ كان سيخطيء في تقديره فقد اشتعلت نيران الصحراء والبدو مائة عام من المجد عندما بسط العرب سلطانهم ومدوا حكمهم ولغتهم من أسبانيا إلي حدود الصين مقدمين للعالم ثقافة جديدة ومنشئين ديناً لايزال حتي اليوم إحدى القوى الحيوية في العالم.

وكان محمد بن عبد الله هو الذي أشعل الجزيرة العربية ودفعها لتحقيق ذلك كله، والذي ظل حتي سن الأربعين لايميز نفسه بشيء غير عادي عن بقية معاصريه.

٤ - ويستعرض ويل دورانت في كتابه «تاريخ الحضارة الإنسانية» تاريخ سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فيقول: «وإذا حكمنا علي العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس، قلنا أن محمداً كان أعظم عظماء التاريخ فقد أخذ علي نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجور وجذب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدرك فيه أي مصلح آخر في التاريخ».

٥ - ولقد وجد برنارد شو في شخصية الرسول -عليه الصلاة والسلام- مادعاه إلي أن يصفه بأنه منقذ البشرية فقال: «لقد عمد رجال الاكليروس في العصور الوسطي إلي تصوير الإسلام في أحلك الألوان، وذلك بسبب الجهل وبسبب التعمصب للذميمة، والواقع أنهم كانوا يسرفون في كراهية محمد وكراهية دينه ويعيدونه خصماً للديسيح، أما أنا فأري واجبا أن يدعي محمد منقذ الإنسانية واعتقد أن رجلاً مثله إذا تولي زعامة العالم الحديث نجح في حل مشكلاته وأحل في العالم السلام والسعادة وما أشد حاجة العالم اليوم إليهما، وليس هذا الذي اقتبسناه إلا نقطة من محيط وعلي سبيل المثال مما أصبح الباحثون من غير المسلمين يرددونه في هذه الآونة الأخيرة من حيث عظم تأثير سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام علي البشرية منذ

ولد حتى اليوم ،مما يؤكد في نهاية أي تحليل علي أنه ينطوي علي بسر يستعصي علي التحليل العلمي ولكني لا أستطيع أن أبينه بالتفصيل في هذا المقال .

ثم يتكلم الكاتب عن الكعبة بأن للعرب هواية في بناء الكعبات وتقديس الأحجار كأنه يقول أن الكعبة للمشرفة هي من صنع العرب لأنها صنعت كعبات أخرى كثيرة ذكرها في كتابه وأن العرب يضعون حجرا أسود ضمن الكعبة الخاصة بهم، وكذلك الكعبة بها حجر أسود. ويجب أن نرد عليه بما ذكره «برثون» في رحلته للحجاز بأنه قال: «ولا يزال الصابئة اليوم كما كانوا قبل الإسلام يحسبونها «أي الكعبة» من البيوت السبعة التي تناظر الكواكب السبعة ويقولون أنها بيت أشرفها دارا وهو زحل وستبقى في الأرض مابقي زحل في السماء».

والمشهور عن الصابئة أنهم يوقدون الكعبة في مكة وأنهم يعتقدون أنها من بناء هرمس أو إندريس عليه السلام، والصابئة هم قوم لا يجاوز عددهم عشرة الآلاف وهم يقيمون في الأقاليم الجنوبية في العراق حيث قام الخليل - عليه السلام - كما في زواية العهد القديم ويقول العلامة Wright صاحب كتاب المطالعة العربية أن حروفهم الأبجدية تشبه الحروف النبطية وأن لغتهم تشبه لغة التلمود، وأنهم يقولون أن لغتهم الأولى سريرية وأنهم كانوا بمصر علي عهد الفراعنة الأول، وتلقوا ديانتهم الأولى عن أحبارهم ثم هجروها حين تحول أهلها عن الدين القويم والمعروف لدينا وللعالم أجمع أن الصابئة قوم قبل الإسلام بألاف السنين وأنهم يعرفون الكعبة قبل أن يهبط علي أرضها أحد من البشر من سلالة إسماعيل عليه السلام، وهذا يدل علي قدم الكعبة قبل العرب وأنها ليست من صنع العرب.

والمعروف تاريخيا أن الدول الكبرى حاولت أن تستغني عن مكة بتحويل الطريق منها أو هدم كعبتها فلم تفلح وبقيت لها مكانتها وقداستها كما كانت من أقدم عهودها، وهي قديمة سابقة لكتابة أسفار العهد القديم في التوراة، فإنها هي «ميشة» المشار إليها في سفر التكوين ،وهي ميشة التي يقول الرحالة بيرتون: «إنها كانت بيتا مقصودا لعبادة أناس من أبناء الهند ويقول الرحالون الشرقيون أنها كانت كذلك بيتا مقصودا للصابئين الذين أقاموا في جنوب العراق قبل الميلاذ بأكثر من عشرة قرون كما سبق أن ذكرنا.

ويخبرنا التاريخ أن أبرهة بنى «القليس» في صنعاء، وهو معبد له فلما تم بناؤها أمر بتحويل الحج إليها وكتب إلى النجاشي أنه سيصرف العرب أجمعين إليها، فذهب إليها بعض العرب وهي الكعبة الجديدة ليدنسوها، وأن سيداً من سادات تميم فعل ذلك، فكان من جراء ذلك هجوم أبرهة على مكة في عام القيل المشهور وهناك محاولات أخرى لهدم الكعبة أخبرنا بها التاريخ ولكنها لم تهدم رغم كرهه من ذوي السلطان لها في الجنوب، والفرس والروم في الشمال ومما هو جدير بالذكر ومما يعتبر ضربة قاضية لكل منكر للكعبة وللحجر الأسعد هو أنه شغل الباحثين والعلماء والمستشرقين من مئات السنين كنه الحجر الأسعد؛ هل هو من السماء أم الأرض وبعد البحث والتحليل لجزء من الحجر الأسعد أثبتت الدراسة العلمية أن الحجر الأسعد من أصل سماوي - نيزكي - وليس من أحجار الأرض، وبذلك أنهى الجدل السائد بين بعض المستشرقين، وكان بعضهم يقول إن الحجر الأسود من أصل بركاني، وكانت هذه النتيجة بعد تحليل قطعة صغيرة من الحجر الأسود أخذها العلامة ريتشارد بيرتون بعد أن ادعى أنه مسلم، وهذا البحث كتب بمجلة آخر ساعة، وهنا سؤال: هل لو بنى العرب أو غيرهم كعبات أخرى للعبادة هل هذا ينقص من كعبة المسلمين شيئاً... الحقيقة لا لأن العبادات كلها التي وضعها الحق سبحانه وتعالى على الناس جميعاً منذ آدم - عليه السلام - بها صلاة (قيام وركوع وسجود) وأخذ الفرائض رسماً من هذه الصلاة، وأخذت البوذية صورة من هذه الصلاة فهل نقول أن الصلاة ما دامت قد أخذت من صورتها أناس غير مؤمنين تكون هذه الصلاة - وهي صلاة المؤمنين - صلاة غير معمول بها، وكذلك بقية العبادات من صيام وغيره - ومن رعاية جوار البيت حلف الفضول الذي تعاهد فيه عظماء قريش لنصر كل مظلوم ورد الحق إلى كل مغبوب، وأن يكونوا يداً واحدة في قتال كل غاصب، ويعلق الأستاذ العقاد - رحمه الله - على هذا بقوله في كتاب (مطلع النور): «وما من مقدمة للدعوة المصمدية كانت إلزام ولا أكرم من هذه المقدمة تيسيراً لاجتماع الكلمة على الخير، وتوحيد أبناء الجزيرة العربية في دعوة واحدة، ليست لذي سلطان من ملوك اليمن أو خليج فارس أو مشارق الشام الذين يدينون بالولاء للأكاسرة وللقيصرة وللنجاشيين بل هي دعوة الله تلقاها أصحاب التيجان والعروش كما تلقاها عامة الخلق من العباد».

وقد جاء بصفحة ٧٩ من الكتاب عندما يتكلم الكاتب عن زواج النبي -عليه الصلاة والسلام- بالسيدة خديجة مانحاً: «فخديجة الفنية بمالها قد فارقت عهد الشباب الأول وكانت لها تجربة إدارة أموالها، كانت أقدر علي حياة زوجية هادئة رزينة هيأت لحمد أن يتخفف من أعباء الحياة لأفكاره الذاتية».

وسواء كانت هذه العبارة من كلمات الكاتب أو من كلمات يشبها للدكتور أحمد الشريف في كتابه «مكة والنبوة»، سواء كان ذلك أو هذا، فأحب أن أقول أن الرسول -صلي الله عليه وسلم- ليست له أفكار ذاتية يفكر فيها لذاته ولو أن الكاتب أو غيره خرج من تعصبه الفكري وقال ما بأن علي قلبه وفتح العقل السليم الناضج وقرأ تاريخ النبي -صلي الله عليه وسلم- لخرج بما خرج به العلماء الذين ذكرناهم في صدر المقال من أوصاف النبي -عليه الصلاة والسلام- وهم غير مسلمين ولكنهم دققوا فيما كتبوا فكانوا أمناء فيما وصفوا.

ويقول الأستاذ العقاد -رحمه الله- في كتابه (مطلع النور) واصفا الرسول -عليه الصلاة والسلام- بأنه سيد المرسلين: «سيد المرسلين بحق من جاء بالرسالة المنزهة المثلي وهذه هي رسالة محمد بشهادة العقل حين يقابل بين القرائن والأمثال قبل شهادة المتدين لدينه والمتعصب لعصبته والمقلد لما يمليه التقليد عليه».

ومما أدهشني أن الكاتب يفسر الآية الكريمة: ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ أن هذه الآية نزلت في فضل السيدة خديجة علي النبي -صلي الله عليه وسلم- وعلي المسلمين لأنها أغنته بمالها، وإذا عرضنا هذه الآية علي منطق العقل البسيط هل الله سبحانه وتعالى عندما يتكلم مع الرسول -عليه الصلاة والسلام- فيقول له ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾ وهو خطاب منه سبحانه له هل يفهم من ذلك أن الذي آواه جده عبد المطلب أو عمه أبو طالب أم الذي آواه هو الله ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ أي أن الله هدي به الناس أو ما يقصده الكاتب بأن هداه أحد آخر.

﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ ألا يكون هذا علي سياق الآيات السابقة أن الذي أغناه هو الله أيضاً، ومعني هذه الآية ليس كما قال الكاتب ولكن معناها أن الله أغناه أي جعله مستجاباً.

يقول الكاتب في ص ٨٠: «وبعدها أخذ محمد صلي الله عليه وسلم يتابع خطوات

جده عبد المطلب إلي غار حراء مما حول هذا الكهف إلي مكان مقدس ودخل التاريخ دون ملايين مثله.

يا للعجب، هل النبي -عليه الصلاة والسلام- عندما ذهب إلي غار حراء ليتعبد فيه، ألم يكن ذلك من تلقاء عقيدته وبما أوحى الله به عليه، الحقيقة نعم - أما ما ذكره الكاتب من أنه تابع خطوات جده عبد المطلب إلي غار حراء فمعن أين جاء الكاتب بهذا؟ والله إنه إقتراء لا أساس له من الصحة، لأن التاريخ لم يذكر لنا أن سيدنا عبد المطلب ذهب إلي غار حراء أو أنه كان يتعبد في هذا الغار والكهف لم يتحول كما قال إلي مكان مقدس بدليل أن كثيرا من الحجاج والمعتمرين لا يذهبون إليه كمكان مقدس. ولكنهم يذهبون إليه للتبرك بمكان تعبد فيه -الرسول صلي الله عليه وسلم- ولولا أن الرسول صلي الله عليه وسلم دخله ماسخل التاريخ.

ويتجرا الكاتب علي القرآن أيضا بأنه نزل يسب الوليد بن المغيرة والأخنس بن شريق عندما قالا: «أمفتون محمد أم مجنون» فنزلت آيات القرآن ﴿بأيكم المفنون.. همان مشاء بنميم. مناع للخير معتد أثيم. عتل بعد ذلك زنيم﴾ ١٢-٦ القلم. ويشرح الزنيم بأنه ابن الزانية اجترأ ليس بعده اجترأ الا يعلم الكاتب أن الزنيم هو الذي لا أصل له معروف، وقيل هو الدعي الملحق بقوم وليس منهم وقيل هو المعروف بالثيم وقيل هو الذي له علامة في الشر يعرف بها، وإذا ذكر الشر سبق هو إلي الذهن، وهذا يدل علي أن المعني ليس كما قال الكاتب أنه ابن الزانية.. ويذكر الكاتب ص ٨٣ من كتابه أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- قام يؤلب العبيد علي أسيادهم لندائه: «اتبعوني أجعلكم أنسابا والذي نفسي بيده لتعلمن كنوز كمسري وقيصر».. ويعلل الكاتب أن دعوة النبي -صلي الله عليه وسلم- ستجعل للعبيد أنسابا، وأنها تمثلت في عبده زيد بن حارثة وأنه أعطاه اشرف النسب بتبنيه إياه.. إلخ ما جاء من أقواله ولست أدري لم نسب الكاتب هذا الحديث بأنه اختص بالعبيد ولم يكن هذا الحديث خاصا بالعرب جميعا ماهذا إلا قصور في الفكر أوطعن في السيرة، أما عتق النبي -صلي الله عليه وسلم- لزيد بن حارثة، فقد كان قبل الإسلام وقيل التكليف بالرسالة فلا ارتباط بينها وبين ما ذكره الكاتب، ولولا ضيق المقال لأوضحنا الكثير حتي يفهم الكاتب وغيره أنهم لا يعرفون شيئا عن التاريخ الإسلامي.

ويقول الكاتب أن الرسول -صلي الله عليه وسلم- نزع عن قریش الإيمان رغم

أنهم أهل الله وناداهم ﴿قل ياأيها الكافرون.... لكم دينكم ولي دين﴾ ثم يأتي الكاتب بقلمه.. ويقول: «نعم مازالت الآيات تبرز التسامح الديني - لكم دينكم ولي دين - ولكن تنعت أهل مكة بأنهم الكافرون، رغم تأكيدها من قبل أنهم قوم يؤمنون بالله خالق السموات والأرض ويعلم ذلك بالآية الكريمة: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾ ٦١ العنكبوت.. وغيرها من آيات الله في هذا المجال. وكأنه يريد أن يضرب الآيات بعضها ببعض ولكن لا يحق المكر السييء إلا بأهله.

أحب أن أوضح للكاتب وغيره أن الآيات التي في سورة العنكبوت والمؤمنون والزخرف التي تشير إلي هذه الأسئلة هي لإعجاز البشري وإظهار قدرة الله سبحانه وتعالى الذي لا ينكره مسلم أو كافر - فالاعتراف بها بأن الخلق كلهم لله ليس دليلا على إيمان من اعترف بذلك ما دام يعبد سواه، فالاعتراف شيء والعبادة شيء آخر، فالإيمان لا يكون إلا بالاعتراف والعبادة أي العقيدة والعبادة.

يقول ديكرت في كتاب (ديكرت - مبادئ الفلسفة):

«علي أي معني يمكن القول بأن من جهل الله قلن يستطيع أن يعرف شيئا آخر معرفة يقينية، ومعني ذلك أنه لم يصل إلي علم يقيني من لا يعرف خالقه ويقول أيضا: «في إمكان إثبات وجود الله من أن ضرورة الكينونة أو الوجود متضمنة في تصورنا له، بمعني أن من تصور الوجود الضروري الأبدى متضمنا في فكرته عن الوجود الكامل إطلاقا لزم أن يستنتج أن هذا الوجود الكامل بإطلاق موجود حقا.

ويقول أيضا: «في أن أجالنا في حياتنا كافية وحدها لإثبات وجود الله»، ولقد قال ديكرت الكثير والكثير في صفات الله واعترافه بأنه واحد لاشريك له قادر ومع هذا الاعتراف من هذا الفيلسوف إلا أنه لا يعد من المؤمنين ويعد من غيرهم لأنه لا بد من الارتباط بين العقيدة والعبادة كما سبق أن ذكرنا.

ويقول الكاتب أن رسول الله -صلي الله عليه وسلم- قال وهو يطوف بالكعبة عندما غمز أشراف قريش من قناته بعد أن التفت إليهم: «اتسمعون يامعشر قريش أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح» وأن الرسول -صلي الله عليه وسلم- بر بقسمه في بدر الكبرى، ويعني الكاتب بقوله أن النبي -عليه الصلاة والسلام- قد

توعد القوم بالذبح ونفذ هذه الرغبة في غزوة بدر الكبرى -إلي أيها القاريء بأي عقل
تقبل هذا الكلام حديثا يقال في مكة في أول البعثة للتهديد والانتقام من رسول
الإنسانية ونبي الرحمة ينفذ في غزوة بدر، أي بعد أكثر من ١٠ سنوات وأن الرسول
-صلي الله عليه وسلم- مصر علي الانتقام - إن هذا الكلام يتنافي مع ماحدث ببدر،
فلا عجب أيها القاريء حينما تعلم أن الرسول -صلي الله عليه وسلم- علي ماكان
من تحريضه أصحابه وما كان يرجو من استئصال عدو الله قد طلب الي المسلمين
منذ اللحظة الأولى من المعركة الا يقتلوا من أحسن إلي المسلمين في مكة، فهذا
المعروف الذي قد قدم به هؤلاء وأولئك امتيرره الرسول -صلي الله عليه وسلم
-حسنة يجزي من قدمها بمثلها بل يجزي بعشرة أمثالها، لذلك كان شفيعا لهؤلاء
وأولئك عند المسلمين ساعة القتال، فأين هذه الرحمة والعدالة والحق الذي أمر به
الرسول -صلي الله عليه وسلم- من عدم قتل من أحسن إلي المسلمين من أين فهم
الكاتب بأنه توعد بالذبح وأين هذا الذبح ؟ لو كان حدث كما قال لهلك المشركون في
غزوة بدر جميعا ،ولكن هذا لم يحدث فقد كان هناك من أسر ولم يقتل ،وكان كثيرا
فلم الافتراء علي نبي الإسلام؟ ألم يقرأ الكاتب ماحدث بين أبي بكر وعمر -رضي
الله عنهما- في مصير الأسري، وكان رأي أبي بكر العفو عنهم ورأي عمر قتلهم،
وقد أيد الرسول -صلي الله عليه وسلم- رأي أبي بكر.

وليضيق المقال اكتفيت بهذه الردود مع أن بقية ماجاء بالكتاب ليست لها قيمة حتي
نرد عليه.

ويقول العالم الانجليزي كارليل في كتابه (كتاب الأبطال) لقد أصبح من أكبر العار
علي أي فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغي إلي من نطق من أن دين الإسلام
كذب وأن محمدا خداع مزور، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال
السخيفة المخجلة.

فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنا لنحو
مائتي مليون من الناس أمثالنا، خلقهم الله الذي خلقنا، فكان أحدهم يظن أن هذه الرسالة
التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء كذبة؟ أما أنا فلا أستطيع
أن أري هذا الرأي أبدا ولو أن هذا الكذب والغش يروجسان عند خلق الله هذا الرواج
ويصادفان منهم ذلك التصديق والقبول فما الناس إلا بله ومجانين وما الحياة إلا سخف

وعيث كان الأولي بها الا تخلق. فوالسقاء ما أسوأ مثل هذا الزعم وما أضعف أهله ولحقهم بالرتاء والمرحمة.

وبعد فعلي من أراد أن يبلغ منزلة في عيون الكائنات الا يصدق شيئا البتة من أقوال هؤلاء السفهاء، فإنها نتائج جيل كفر وعصر جحود وإلحاد. وهو دليل علي خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح في حياة الأبدان.

وقد جاء في كتاب :

Burns edward western civliagtion W.W- morton Scompany inc.New York 1973.

مانصه «أن عظمة الحضارة الإسلامية وأهميتها لاترجع إلي أنها أثت فقط بدين جديد آمن به الملايين من الناس في أماكن متعددة ومتفرقة - وإنما فيما أحدثته أيضا من تغيرات اجتماعية وسياسية كثيرة، نتج عنها ثراء فكري وتراث حضاري لم يسبق له مثيل . وقد تضمنت الحضارة الإسلامية الآداب والأخلاق والفلسفة والمنطق كما كانت ذات تأثير خاص في الحياة السياسية والاجتماعية والعلاقات الدولية، وهذا قليل من كثير للرد علي الكاتب.

فإن لم يكن هناك رد لمن يسب الإسلام فيكفيانا رد غير المسلمين عليه وخاصة «كارليل» .

- قد يلاحظ القاريء أنني لم أستشهد بآية من آيات الله ولا حديث وأن استشهاداتي كلها من أقوال غير المسلمين ،لأن هذا هو الذي يقتنع به الكاتب ومن كان معه في الرأي ولعلك أيها القاريء تنصفني في ذلك.

ونختتم مقالنا هذا بما قاله الأستاذ عباس العقاد -رحمه الله- في كتاب (مطلع النور) «وحيث ينهض رجل واحد بما يباه قومه ويأباه معهم أقوام زمانه فليست هي إرادة إنسان، ولكنها إرادة الله وماهي بقدرة أحد أوأحاد ولكنها قدرة الخالق فيما يوليها من يشاء وحيث يشاء».

ولقد صدق الله العظيم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نَورَ اللَّهِ بِأَنفُسِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ٣٢ التوبة.

التعدد لا التعدي

بقلم: فهمي هويدي

الأهرام - ٢٣ مارس ١٩٨٩ م القاهرة

نريد أن نستثمر الإجماع علي رفض الرواية الشيطانية لسلمان رشدي ،في حوار آخر أهم وأجدي حول نهج «المدرسة الرشدية» المعاصرة . وهي المدرسة التي تعمدإلي النيل من العقائد والشرائع السماوية ومقدسات الناس ، بحجة حرية البحث أو الاجتهاد .

لقد كان المنطق الذي التقى عليه الإجماع في رفض الرواية الشيطانية يقوم علي فكرة أن حرية الرأي ينبغي أن تكفل للجميع حقاً ، شريطة ألا تنتهك العقائد والمقدسات ، أو تجرحها . وأحسب أن الذين أيدوا هذه المقولة لم يكونوا متعصبين ولا متطرفين ، بل إن بعضهم كانوا من غير المسلمين ، ومن غير المتدينين أصلاً..

عندما قرأت رواية سلمان رشدي ،كان أول ما خطر علي بالي هو أن لدينا كتابات عربية ، من ذات القبول تختلف عنهما في الدرجة وليس في النوع ، أعني أنها تهتك المقدسات وتجرحها أيضاً ، لكنها لا تستخدم ألفاظه البذيئة والوقحة تهدم في هدوء وبغير ألم ، وتتحدي ركائز عقيدة الأمة بمتمهي الأدب!

وقدذاك قلت أن هذه الكتابات أسوأ وأخطر.. لأن رواية سلمان رشدي تسبب وتجرح علي المكشوف، وقارثتها يلحظ ذلك في الصفحات العشر الأولى من مؤلفه، أما الكتابات العربية التي أعنيها، فبعضها يبيت الألفام في أساس العقيدة والشرعية، بأسلوب لا يصدم القاري غير المتخصص، ولكنه يتسرب إلي عقله ووجدانه، ويحدث مفعوله في هدوء.

قلت أيضاً أنه أولي بنا وأجدر أن نوقف هذا العدوان الذي يأتينا من الداخل في شكل غارات منتظمة وبأساليب ملتوية ، قبل أن نصد رياح السموم التي تهب علينا من الخارج. وأنه إذا كانت همة أهل الغيرة والحس السليم قد استثيرت، فهبوا رافضين ومنددين بأسلوب ومقاصد الرواية الشيطانية، فلماذا لا ندعوهم إلي وقفة مماثلة - شريفة ومتصفة - إزاء تلك الكتابات الشيطانية التي يروج لها في ديارنا؟

لما كتبت في موضوع رواية سلمان رشدي ، في ٢٨ فبراير الماضي ، لم أشأ أن أتعرض لهذه النقطة، لأن حجم الانفعال الذي كان سائدا آنذاك لم يكن يسمح بتوسيع نطاق المواجهة ،إضافة إلي أنني أثرت أن أعرض القضية بعد أن يعود الهدوء إلي النفوس، ويصبح الجميع في وضع يسمح بإجراء حوار غير مشتعج ، حول ضوابط التعامل مع العقائد والمقدسات. وأرجو أن يصح ظني في أن ذلك قد تحقق الآن نسبيا.

كتابات شيطانية

لسنا هنا في صدد توجيه الاتهام.أو المحاكمة، فليس هذا ما نستهدفه فضلا عن أننا لا نملكه، لأن هدفنا في نهاية الأمر - تكرر - هو أن نتفق علي ضوابط للتعامل مع العقائد والمقدسات المستقرة في ضمائر جميع المؤمنين ، وأن نتوصل إلي صيغة وأسلوب تتحقق بهما كفالة احترام حرية الرأي واحترام تلك العقائد والمقدسات، وهي الإشكالية الأساسية التي أثارها رواية سلمان رشدي.

ولكي تثبت الحالة، حتي يستيقن الجميع من أننا نتحدث، عن حقيقة قائمة ، ولا نطلق ادعاء بغير دليل، فإننا نستشهد بنصين من نوع الكتابات الشيطانية العربية التي نريد أن نلفت النظر إليها، النص الأول منشور في مصر لباحث يحمل درجة الدكتوراة في الفلسفة ، استأذن في أن أشير إليه بالحرفين الأولين من اسمه س.ق. وهو تلميذ لأحد كبار اساتذة الفلسفة المقيمين خارج مصر، ممن كرسوا جهدهم في السنوات الأخيرة لنقد الفكر الإسلامي والحركة الإسلامية ، وعنوان النص أو البحث

الذي نقصده هو: دور الحزب الهاشمي والعقيدة الحنفية في التمهيد لقيام دولة العرب الإسلامية.

النص الثاني لباحث جسنائري يقوم بالتدريس في جامعة السوربون بفرنسا، هو الدكتور محمد أركون ، وهو كتاب صدر في بيروت منذ عامين، بعنوان «تاريخية الفكر العربي الإسلامي».

خلاصة البحث الأول الذي يقع في عشرين صفحة ، ونشرته مجلة كانت تباع في القاهرة هي : أن عبد المطلب بن هاشم، جد النبي -عليه الصلاة والسلام- كان يحلم بإقامة وحدة سياسية بين عرب الجزيرة ، تحت زعامة قبيلته وهو يفكر ويخطط لطموحه ذلك، فإنه تأثر باليهود من جيرانه، الذين كان لهم كتاب «سماوي المظهر»، وتاريخ شهد قيام دولة قديمة أنشأها «الملك النبي» داود وإزاء ذلك فقد هداه التفكير هو ومن حوله ، إلي « أنه لا حل سوى أن يكون منشيء دولتهم نبيا مثل داود» - هذا هو نص عبارة الباحث - ومنذ ذلك الحين بدأ الهاشميون ينفذون مخططهم، الذي انتهى بأن أعلن حفيد عبد المطلب أنه النبي المنتظر، وهو ما عرض له الدكتور في جزء من البحث كان عنوانه: بنو هاشم من التكتيك إلي الأيديولوجيا. اعتبر الباحث أن زواج «النبي محمد بن عبدالله حفيد عبدالمطلب من خديجة بنت خويلد الأسدي التكتيك الهاشمي ، وأنه من ثمار تحالف عبد المطلب بن هاشم مع أبيها خويلد الأسدي وذكر أن إلغاء التماثيل والأصنام والدعوة إلي عبادة الإله الواحد، هي أيضا من قبيل التكتيك الهاشمي الذكي!!

عن زواج النبي من السيدة خديجة التي يطلق عليها الباحث وصف «الأرملة الثرية» ... - قال صاحبنا في موضع آخر ما نصه، «أن الزواج وفر له الوقت الكافي والأطمئنان النفسي للانصراف من السعي وراء الرزق إلي التفكير في شئون قومه السياسية والدينية» (١٩) - من ثم أخذ يتابع خطوات جده عبد المطلب إلي غار حراء.. وبالحنيفية آمن ولم يكذب يبلغ الأربعين من عمره حتي حسم الأمر، بإعلانه أنه نبي الأمة بعد أن أوحى إليه إله إبراهيم أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا!! ولإثبات فكرته القائلة بأن الأمر لم يتجاوز مخططات وطموحات بني هاشم استشهد بإعلان النبي عليه الصلاة والسلام، أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب، وعقب علي العبارة قائلا : كائي به ينادي طيف جده: أي جدي هانذا أحقق حلمك!!

في النهاية ختم الكاتب بحثه ببیت الشعر المنسوب الي يزيد بن معاوية، الذي يقول فيه: لعبت بني هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل!

النص الثاني - كتاب الدكتور محمد أركون - يثير قضايا عديدة بينها دعوة إلى ما يسميه الباحث الجزائري «بتفكيك التراث» ، وتتدرج هذه الدعوة حتي تنصب علي القرآن الكريم، الذي يصفه صاحبنا بأنه «أسطوري البنية» . ويحثنا علي أن نعيد قراءته «قراءة تاريخية نقدية» . ومنهجه في بلوغ هذا الهدف يرتكز علي نقطتين محورييتين هما:

أولا : نزع «حالة القداسة» عن القرآن ، المستمدة من تمسك المسلمين بأصله الإلهي، والزعم بأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ..
وزوال تلك «الهالة» يعني التعامل مع القرآن بحسبانه خطابا عرييا، وليس وحيا أو نصا إلهيا.

ثانيا : إعادة كتابة النص القرآني من جديد.. «وهذا يتطلب منا الرجوع إلي كل الوثائق التاريخية التي أتبع لها أن تصل إلينا، سواء كانت ذات أصل شيعي أم خارجي أم سني. هكذا نتجنب كل حذف ثيولوجي لطرف ضد آخر (٢٩) المهم عندئذ هو التأكد من صحة الوثائق المستخدمة بعدها نواجهه، ليس فقط مسألة إعادة قراءة هذه الوثائق، وإنما أيضا محاولة البحث عن وثائق أخرى ممكنة الوجود، كوثائق البحر الميت التي اكتشفت مؤخرا (ص٢٩)

واعتبار القرآن تراثا، أو كتابا تاريخيا أحيط بهالة من القداسة غير مبررة ، ثم الدعوة إلي «تفكيك» هذا التراث وإعادة صياغته من جديد هو دعوة مباشرة إلى تفكيك العقيدة ذاتها ، تسترت وراء القراءة العلمية والنظرة النقدية.

الرسالة هنا واضحة أيضا، تنطلق من ذات المنطق وتصب في ذات الاتجاه، الذي يهدم أساس العقيدة، ويكاد يردد المقولة التي تبناها صاحبنا الأول، واستشهد فيها بأنه: لاخير جاء ،ولا وحى نزل!!

هذه هي المقدسات

أزعم أن هذا المستوي من الكتابات التي تطعن في أصل الدين أو تشكك في القرآن يشكل استثناء وشذوذا غير مالوفين في حياتنا الثقافية ، بقدر ما أن رواية سلمان رشدي بتوجهاتها الطاعنة في عقائد الاسلام ورموزه تشكل استثناء أيضا علي لغة الرواية الغربية. وقد أوردنا النموذجين فقط لكي تثبت أن ثمة كتابات شيطانية أخطر من رواية سلمان رشدي ، تباع في مكتباتنا وعلي أرفصة مختلف العواصم العربية.
غير أن ثمة مستوي آخر من الكتابات يقف علي ذات الأرضية ، وإن لم يبلغ مدي

هدم الدين أو زعزعة الثقة في خطابه الأول الذي هو القرآن.. بعضها يزدرى الشريعة، ويظعن في أحكامها ويسفه نصوصها القطعية، وبعضها يسخر من الأحاديث النبوية الصحيحة.. وبعضها يحط من شأن الصحابة وهذه الكتابات لم يتوقف سيلها طوال السنوات الأخيرة بوجه أخص، حيث خرجت علينا في أثواب متعددة وحلقات مثتالية. في كتب وأبحاث ومقالات صحفية بغير حصر، وقد سبق أن تعرضت - في حدود ما أتيت - لبعض تلك الكتابات، مبينا ما لها من خطر، وما فيها من افك وادعاء.

ولست أحسب أننا بحاجة إلي أن نستعيد تلك الكتابات، لأن شواهدا وأدلتها بين أيدي الجميع، فضلا عن أنني عرضت لها من قبل، وبعض ما نشر لي في هذا الموضوع صدر في كتاب بعنوان «تزييف الوعي».

لن نزيد أو نفصل في هذه النقطة، لأن علاج الموقف ومحاولة تصحيحه هو قضيتنا الأساسية، وفي هذا الصدد أحسب أنه لا بديل عن اتفاق المثقفين والدعاة بمختلف اتجاهاتهم علي ضرورة احترام العقائد والمقدسات علي إطلاقها..

وربما كان مفيدا هنا أن نحدد المقصود بالمقدسات، حتي لا تضفي القداسة علي ما لا قدسية له، وحتى لا تتخذ الدعوة ذريعة إلي مصادرة الحوار فيما هو اجتهادي، يثريه تعدد الآراء حوله، واختلافها أحيانا.

القدسي عندنا هو كل ما يتعلق بالعقائد وبالشرائع القطعية الثابتة بالكتاب والسنة، وما تعلق بذات الله وصفاته وبعامة الرسل والأنبياء، وبأماكن العبادة. وربما الحقنا بهذه الدائرة الثقة في مجموع الصحابة، لا بأشخاصهم، الذين حملوا الأمانة مع النبي ومن بعده.

والقدسية هنا لا تصادر الحوار، لكنها تفرض قدرا واجبا من التوقير والاحترام وترفض الطعن والتجريح والازدراء، بالتصريح أو بالغمز والتلميح وإذا كانت هناك حاجة لمثل ذلك الحوار، فليكن بين أهل العلم والخاصة، لأن جدل عامة الناس في شأن العقائد مثير للفتن.

والذاكرة الإسلامية مازالت تعي قصة ما جري في ظل الخلافة العباسية عندما انتقل الجدل حول قضية خلق القرآن، التي أثارها المعتزلة، من الخاصة إلي العامة فمسالت دماء وخسريت ديار، وترسبت مرارات وضغائن ظلت عيشنا علي الواقع الإسلامي زمنا طويلا.

ولئن ظن أحد أن احترام المقدسات التي أشرت إليها متحقق بالفعل، وأن أحدا لا يجتريء على المساس بها، فإنه يكون بذلك قد أحسن الظن بأكثر مما ينبغي، لأن الشهادات المكتوبة والمتشورة تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن ثلاثة موضوعات علي سبيل الحصر كان لها النصيب الأكبر من غارات التجريح والتشهير التي تلاقت خلال السنوات الأخيرة. وهي: الشريعة، والسنة النبوية، والصحابة وأزعم أن بعض الكتابات التي تناولت تلك الموضوعات تطاولت أحيانا إلى حد التنفير والتحقير.

من شاء فليفكر

إن القاعدة الإسلامية المستقرة في الموقف من العقائد والمقدسات تقوم علي المبدأ القرآني القائل بأنه : من شاء فليؤمن ،ومن شاء فليكفر..

وحساب الجميع أمام الله يوم الحساب .. لكن ثمة تفرقة ضرورية بين طبيعة الموقف الشخصي من المقدسات وبين ترجمة هذا الموقف إلى عدوان علي مقدسات الآخرين.

إلي جانب هذه القاعدة فهناك الموقف الإسلامي الذي يقبل تعددية الأديان السماوية ويعترف بها، ويقبل تعددية المذاهب في داخل العقيدة الإسلامية، ويقبل تعددية المدارس داخل المذهب الواحد.

ويدعو إلي التعايش بين الجميع في إطار من البر والقسط.

هنا تنبه إلي أن دعوتنا إلي احترام العقائد والمقدسات لا نقصرها علي مقدسات المسلمين فقط، ولكننا قلنا من البداية أننا نعني جميع المؤمنين ونعني بهم مختلف أتباع الديانات السماوية التي يعترف بها الإسلام، معتبرا أن أنبياءهم هم أنبياء المسلمين أيضا.

هناك مستوي آخر من التعاليم والأحكام الشرعية، تتوافر القداسة لنصوصه ويقبل تعدد الاجتهاد في فهم محتواه.. أي أنه يتمتع بقدسية جزئية ، وليست كلية، فالنص القرآني أو الحديث الصحيح واجب الاحترام بكل تأكيد ، لكنه إذا لم يكن الحديث قطعيا في دلالاته ومحسوم المضمون ، يسميه الشرعيون ظني الدلالة ، فإن اختلاف الآراء في شأن ذلك المضمون يظل واردا، وليس هناك ما يمنع من نقد تلك الآراء وتجريحها بالأسلوب العلمي المعتبر.

لكننا بحاجة إلي أن نتوقف لحظة عند كلمة الاجتهاد هذه .. لأنه باسم فتح الباب لممارسته أصبحت الإباحة نوعا من الاستباحة ، وسوغ كل من هب ودب لنفسه الحق

في أن يلغظ ويخلط في الأحكام الشرعية، بدعوي ممارسة الاجتهاد حتي قرأنا عجباً في هذا الباب، أهدرت من جرائه أسس مختلف العلوم الشرعية، وفي مقدمتها علم أصول الفقه.

لقد كان مثيراً للدهشة والحزن أن واحداً من الذين هبوا وديبوا وأفتوا بغير علم، عندما ووجه بدعوي إلى استطلاع رأي المتخصصين فيما تخوض فيه، فإنه كتب رسالة نشرتها الصحف قال فيها أنه مجتهد ومتخصص، والدليل علي ذلك أنه حاصل علي ليسانس الحقوق !.. وهو ما يعني أن كليات الحقوق المصرية تخرج سنوياً خمسة آلاف مجتهد، فضلاً عن أن هناك مائة ألف خرجتهم تلك الكليات منذ الثلاثينيات!!

إن للاجتهاد قواعده وأهله، وله مجالاته وساحته ، وله أدبه الذي ينبغي أن يتحلي به الباحثون والمتحاورون. وما لم تراع هذه الضوابط، فإن الانزلاق إلي المساس بالأحكام ويجرهر التعاليم وبمجممل المقاصد الشرعية يظل وارداً وبالتالي فإن احتمال التعدي يصبح قائماً.

إننا نحرص علي التعدد وندعو إليه، شريطة ألا يتخذ ذريعة لممارسة التعدي ولن نستطيع أن نتجنب محذور التعدي ما لم يستقر ذلك الاتفاق المنشود علي احترام العقائد والمقدسات ، واحترام أصول العلم وضوابطه.

ذلك درس مهم، لعلنا نستخلص عبرته من تجربة سلمان وشدي!!!

فضائح الفكر اليساري تأسيس الدولة الإسلامية

بقلم : الدكتور محمد أحمد المسير

صحيفة النور ٢٩ يوليو وه أغسطس ١٩٩٢

نواصل مسيرة كشف فضائح اليساريين رغم مزاعمهم حول العقلانية والعلمية والمنهجية والرؤية النقدية، وهم دخلاء علي هذه المعاني ولا يفهمون منها إلا ما يخدم مذاهبهم الهدامة..

ونقف اليوم مع كتاب بعنوان «الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية لمؤلفه الدكتور سيد محمود القمني ، ويبدأ الكتاب بتقديم بقلم خليل عبد الكريم، يحمل فيه علي العلماء والمؤرخين الذين يرون التاريخ مسيرة غيبية لاهوتية تحركها إرادة الله تعالى .. ويحرص المقدم علي التوقيع هكذا:

الشيخ/ خليل عبد الكريم أدب ونقد/ أغسطس ١٩٨٩

ولست أدري ما علاقة خليل عبد الكريم بالمشيخة والأستاذية؟! ثم ما علاقته بالأدب والنقد؟! وهل يريد أن يمنح نفسه أهلية العلماء الذين يجيزون لطلابهم مقدرتهم العلمية؟

أو أن المسألة تمويه علي القاريء ليطمئن أثناء قراءته للمكتاب؟!؟

هذا ما وصل المؤلف مما كتب السيد الداعية المسير.

إن الإنسان ليس إلها مصغرا في هذا الكون ، وإنما تحركه إرادة الله تعالى، وتحيط به نواميس أبداعها المولي سبحانه، والإنسان نفسه صنعه الله جل شأنه... والكتاب أشبه بالمقالات فهو يضع عناوين تحتها يضع صفحات من القطع الصغير ويسير على النحو التالي:

تأسيس (١)

وقد صدره المؤلف بمقولة نسبها إلي عبد المطلب جد الرسول - صلي الله عليه وسلم ، ولسنا ندري صدقها، تقول: إذا أراد الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء، وأشار إلي أبنائه وأحفاده.

ثم تكلم عن الأسباب التي حالت دون خضوع مكة ويثرب للممالك المجاورة، وأشار إلي أنهما لم تخضعا لحاكم أجنبي ، ولم تكن فيهما ممالك بالمعني الحقيقي ولا وحدة سياسية تضم قبائل الحجاز..

ثم يزعم المؤلف أنه بدا لأهلها أن دولتهم المرتقبة لا حل لها سوى أن يكون منشؤها نبيا مثل داود ، وأن هذا الحل فشلا بسرعة هائلة بين العرب حتي آمنوا بالنبى المنتظر.

ثم يقول المؤلف ص ١٢ : لكن العجب فعلا أن لا يمضي من السنين غير قليل حتي تقوم في جزيرة العرب دولة واحدة بل دولة قوية ومقتدرة تطوي تمت جناحيها - وفي زمن قياسي - ممالك الروم والعجم بعد أن أعلن حفيد عبد المطلب بن هاشم: محمد بن عبد الله - صلي الله عليه وسلم - أنه النبي المنتظر !! وهكذا يفترى المؤلف الكذب فيري أن فكرة النبي المنتظر اختراع عربي جاهلي لجمع الشمل، ويرى أن حفيد عبد المطلب قد أعلن أنه النبي المنتظر بناء علي هذا الوهم والاختراع ثم يضع علامة التعجب في نهاية كلامه بعد أن بداه بالتعجب فعلا ..

والمؤلف بذلك يكون قد رفض حقيقة دينية أكدها القرآن مرارا حول النبي المنتظر في مثل قوله تعالى: ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون علي الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله علي الكافرين ﴾ . (البقرة-٨٩) ﴿

وقوله تعالى: ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما

جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴿الصف-٦﴾

بل إن المؤلف يقطع صلة سيدنا محمد - صلي الله عليه وسلم - بالوحي الإلهي، ويجعل الأمر مجرد إعلان حفيد عبد المطلب أنه النبي المنتظر، وكان المسألة صراع علي السلطة واكتساب مواقف سياسية..

تأسيس [٢]

تكلم المؤلف عن أهمية التجارة البرية في المنطقة العربية نظرا لصعوبة التجارة البحرية في البصر الأحمر والخليج العربي، وتكلم عن محاولات ملوك حمير للسيطرة علي الطريق البري وما شنوه من حملات حربية تجاه مكة ويثرب ويقسر كل أشكال الصراع بين العرب أنفسهم أو بين الفرس والروم بالظروف الاقتصادية والسعي للسيطرة علي الشريان التجاري..

ثم افتعل صراعا بين مكة ويثرب باعتبارهما أهم محطتين تجاريتين علي الطريق البري ثم يهزم المؤلف ويغمر بأن تحالف الخزرج مع رسول الله - صلي الله عليه وسلم - ضد قريش أثناء الهجرة كان ردا علي تحالف قريش مع الأوس ضد الخزرج.. فهو يقول ص ١٨: «ولم تكن قريش بريئة كل البراءة مما يحدث في يثرب، وإنما أسفرت عن توجهها بالتحالف مع الأوس ضد الخزرج يومي معبس ومضرس، وهو مما يلقي الضوء علي المستقبل القريب، عندما يتحالف أهل يثرب وعلي رأسهم الخزرج مع النبي - صلي الله عليه وسلم - ضد قريش، ويفسر لنا التحالف الذي سبق ذلك بين عبد المطلب بن هاشم ممثلا لبني هاشم مع الخزرج من أهل يثرب».

إن المؤلف يصير علي نغمته النشاز بأن النبي - صلي الله عليه وسلم - سار علي درب جده عبد المطلب من أجل الزعامة، ويفتري الكذب بأن الهجرة كانت تحالفا مع الخزرج ضد الأوس وإحياء لتحالف قديم قام به عبد المطلب عندما تزوج منهم، فمن بديهيات الأمور أن أنصار رسول الله - صلي الله عليه وسلم - كانوا من الأوس والخزرج معا وأن أخوة الإسلام جمعت بينهم جميعا وأنهم استقبلوا المهاجرين من مكة ولم يفرقوا بين هاشمي وغير هاشمي، ولا بين قرشي وغير قرشي، وسجل القرآن الكريم إيثارهم في قوله تعالي: ﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون علي أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ ﴿الحشر-٩﴾

الكعبات

تكلم المؤلف عن تعدد الكعبات لدى العرب وتعظيمها بتعدد الأبطال الصالحين الراحلين، ويرى أن البناء المكعب هو الصيغة المعمارية المفضلة لبيوت أرباب الجاهلية وأن الكعبة المكية كانت إطارا لحجر أسود كما كانت باقي الكعبات تتسم بذات السمة فهي أطر لأحجار سود.

ويقول المؤلف ص ٢٢: وسميت هذه الكعبات بيوت الله لأن كل بيت منها فيه حجر من بيت الله الذي في السماء، تميزا له عن الأرباب التي لم تكن سوى مجرد تماثيل أو أحجار بركانية توضع في أفنية الكعبات انتفاعا ببركات الأسلاف الصالحين وتشفعا بهم عند إله السماء.

ويقدم المؤلف بعبريته السانجة سر تقديس الحجر الأسود فيقول ص ٢١: وأحيانا أخرى كانت هذه الكعبات تقام تقديسا للأحجار الغريبة والنادرة، مثل الأحجار البركانية أو النيزكية وكلاهما كان يغلب عليه اللون الأسود نتيجة عوامل الاحتراق ونظن هذا التقديس ناتجا - إضافة لغرابة شكل الحجر - من كونه قادما من عالم غيبي مجهول، فالحجر البركاني مقدوف ناري من باطن الأرض وما صيغ حوله من أساطير قسمته طبقات ودرجات واحتسبته عالما لأرواح السالفين المقدسين.

كذلك الحجر النيزكي وربما كان أكثر جلالة لكونه كان يصل الأرض وسط مظاهرة احتفالية سماوية تخلق لب البدوي المبهور، فهو يهبط بسرعة فائقة محتكا بغلاف الأرض الغازي فيشتعل مضيئا ومخلقا وراءه ذيلا هائلا ، لذلك كان هول رؤيته في التصور الجاهلي دافعا لحسيانه ساقطا من عرش الآلهة في السماء حاملا معه ضياء هذا المكان النوراني ثم كان طبيعيا أن يحاط بالتركيم والتيجيل.

وهكذا يطعن المؤلف في تقديس الكعبة المشرفة ويسلكها في عداد الوثنيات ويقدم تصورا جاهليا يعيد كل البعد عن المفهوم الاسلامي الصحيح حول بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للكعبة المشرفة ودعوة الناس للحج إليها. قال تعالى: ﴿وَعِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البقرة-١٢٥).

مكة : حلم السيادة

يرى المؤلف أن مكة تهيأت لإفراز عناصر قيادية عربية ، وقدرت الأحداث أن تكون لكعبة مكة المكانة الأولى عند العرب، والمجد الأقدس دون غيرها من الكعبات بسبب

الأسواق التجارية في مكة ، وتسامح أهل مكة الديني الذي دفعهم إليه أن صعود النجم المكي واتساع السيطرة المكية أعطي للقرشيين الضوء الأخضر للقيام بالدور التاريخي الذي حتمته الظروف عليهم ، خاصة بعد أن تدهورت اليمن ..

ويري المؤلف أنه مما ساعد علي ارتفاع النجم المكي هزيمة حملة الفيل ، الأمر الذي أدى إلي الاعتقاد الواثق برب الكعبة المكية الذي صد عن بيته الجيش الغازي .. ثم تكلم عن قصي بن كلاب ووصفه بأنه صاحب دهاء ووعي سياسي ، انتقل بمكة من القبيلة إلي الحضارة بإنشاء دار الندوة ، وإيفاد الرسل إلي ممالك علي اطراف الجزيرة العربية ، والاهتمام بالنشاط الاقتصادي ..

ويزعم المؤلف أن ذلك كله قد تم وفق خطة مرسومة ومدروسة ومنظمة! وإننا نلاحظ إصرار المؤلف علي استخدام تعبيرات: الكعبة المكية ، ورب الكعبة المكية ، وحتمية الظروف .. وكلها مقولات من لا يؤمن بالإسلام ..

كما نلاحظ إلقاءه لأحكام جزافية كقوله إن هناك خطة مرسومة ومدروسة ومنظمة ، فيأ تري من الذي نظمها ودرسها ورسمها؟!

إنه يمهّد لفكرته الشيطانية بأن محمد - صلي الله عليه وسلم - هو الزعيم العربي الذي أنتجته الظروف وحولته إلي قائد عسكري ودفعته به إلي تأسيس دولة حلم بها أجداده...!!!

الصراع على السلطة بعد قصي:

يري المؤلف أنه بعد وفاة قصي بن كلاب ترك كل سلطاته ووظائفه وسنته الزكية لولده البكر عبد الدار دون أخيه عبد مناف ، وبدأ الصراع بين الإخوة وانتهى بتقاسم أبناء العمومة ألوية الشرف الموروثة .. فالسقاية والرفادة والقيادة لبني عبد مناف ، والحجابة واللواء لبني عبد الدار ، ودار الندوة بينهم بالاشتراك .

وبدأ المؤلف يغمز ويهمز فيري أن ألوية الشرف في القيادة والسقاية والرفادة المنتزعة من بيت عبد الدار لبيت عبد مناف قد استقرت في يد هاشم بن عبدمناف بالتحديد دون بقية إخوته ..

وما إن رحل أخوه عبد شمس عن الدنيا حتي ساورت ولده أمية الأطماع في أخذ ما بيد عمه من ألوية الشرف بالقوة ، وانتهى الأمر بالاحتكام إلي كاهن خزاعي ، فقضي

الكاهن ينفي أمية بن عبد شمس عشر سنوات إلى منفي اختياري ، ولم يجد أمية أبدا من الرضا بحكم ارتضاه ، فشد رحاله إلى بلاد الشام..

وكانت هذه السنوات العشر التي قضاهها أمية بن عبد شمس في منفاه الشامي رصيذاً لبيته الأموي من بعده حتي قام معاوية بن أبي سفيان وأقام الدولة الأموية..!! وهكذا يحاول المؤلف جاهداً أن يتوهم الصراع السياسي في المنطقة العربية، وكان الحياة قائمة علي تسلسل اختياري وترتيب إرادي للوصول إلي هدف قيام الدولة الأموية في مواجهة الحزب الهاشمي..

وتناسي المؤلف أن أحداث التاريخ في تعاقب عصورها ليست إرادة بشرية صرفة وأن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن.

وأن هدف شخص في عصر ما لا يلزم منه أن يتواصل السععي له في أحقاب متتالية، فالمسألة برمتها أحلام أشخاص وليست أحلام أمية.. ثم متي أسلم معاوية؟ لقد أسلم بعد عشرين عاماً من الدعوة الإسلامية.. ومتي كان حلم الدولة الأموية يراوده؟ في جاهليته أم في إسلامه؟

وهل كان أمية بن عبد شمس في منفاه الاختياري بالشام يرتب لقيام الدولة الإسلامية الأموية بقيادة حفيده معاوية؟

ومهما قيل عن الملك العضوض للدولة الأموية فإننا نتساءل:

هل قامت الدولة الأموية علي الإسلام أو تبنت عقيدة الجاهلية ووثنتها كما تصورها عبد النار وبنوه وأحفاده الجاهليون؟

إن الذي لا يقبل المراء أن الدولة الأموية احتضنت الاسلام وواصلت مسيرة الفتح الإسلامي ووصل المسلمون إلي أقصى الأفاق في آسيا وأفريقيا وأوروبا وجاءت بعد ذلك الدولة العباسية لتقيم الحضارة العلمية فوق هذه البقاع الإسلامية..

بنو هاشم من التكتيك إلى الايديولوجيا

يزعم المؤلف أن التكتيك الذي بدأه قصي وصل إلي هاشم، وهو تكتيك قائم علي اكتساب القلوب بالسخاء المالي ، ودعم قوي حزبه العسكري برجال من بني النجار والخزرج في يثرب وبيعض المصاهرات إلي بني زهرة..

واستمر عبد المطلب بن هاشم علي هذا التكتيك في العطاء والمصاهرة وتحول إلي وضع أيديولوجيا متكاملة لتحقيق أهداف حزبه السياسي، فانطلق عبدالمطلب يضع ديانة جديدة تجمع القلوب حول إله واحد.. وزعم أنه أوحى إليه بحفر زمزم، وزعم أن العرب جميعا وقريشا خصوصا يعودون بجنودهم إلي نسب واحد منهم رغم تحزبهم وتفرقهم أبناء لإسماعيل بن إبراهيم ، ومارس عبد المطلب التحدث والدعوة إلي مكارم الأخلاق.. ويتخذ المؤلف من تقول بعض الرواة عن الصفاء القطري لدي عبد المطلب، ليجعل ذلك ذريعة يشج حولها خياله المريض، فيدعي أن عبد المطلب اخترع أيديولوجيا أو عقيدة ذات مآرب سياسي.. وأن عبد المطلب أعد حفيده محمد - صلي الله عليه وسلم - للرئاسة فكان يجلسه علي فراشه في ظل الكعبة ويقول: إن لابني هذا شأنًا، أو بعبارة أخرى : دعوا ابني إنه يؤسس ملكا.

بل إن المؤلف يفسر كل مصاهرة تمت لعبد المطلب أو لولده عبد الله بالسعي إلي الرئاسة عن طريق الملك والنبوة المنتظرة..

ويسوق روايات مفادها أنه علم من أحبار اليهود أن الملك والنبوة عن طريق المصاهرة من بني زهرة فتزوج عبد المطلب هالة بنت وهيب، وزوج ابنته عبد الله أمنة بنت وهب أخي وهيب لهذا الغرض ..

وهكذا يفرج المؤلف عن كل منطق علمي صحيح ، ويتخذ من روايات - ليس لها صحة السند ولا صدق اليقين - دلائل علي وهم اخترعه وأساطير يسعي إليها..

ومتي كان الأحبار والكهان يتخذ من أقواهم نواميس قيام الدول والحضارات؟! وإذا كانت هناك إرهابات معينة للنبوة المصمدية فيقيننا بها جاء بعد الرسالة وليس قبل أن يوحى إلي محمد - صلي الله عليه وسلم ..

فهي أقاصيص وأحاديث تروي لا يعتد بها ولا يلتفت إليها ولا يترتب عليها أمر جوهري ، ولم يتنبه الناس إليها إلا بعد أن أعلن محمد - صلي الله عليه وسلم - أنه تلقى وحيا ..

ولم يكن الوحي رغبة نفسية لمحمد - صلي الله عليه وسلم - ولم تكن الرسالة أملا يراوده ، ولا حلما يسعي إليه، ولقد عاش أربعين عاما قبل أن يوحى إليه كما يعيش كافة أقرانه لم يعرف عنه إلا أنه الصادق الأمين ..

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تَلَّيْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعْتُ إِلَّا مَا يُوْحِي إِلَيَّ

إنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم. قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون ﴿ (يونس-١٥-١٦) ولنعلم أن الله تعالى إذا أراد أمرا يسره له أسبابه وجمع القلوب حوله.

جنود الايديولوجية الحنيفية:

بدأ المؤلف بربط الحنيفية بالقرن الأول قبل الميلاد ، حيث كان بعض أهل اليمن يعبدون إله السماء ويدعونه رحمن اليمن.. ثم يفترض أن حنفاء مكة وعلي رأسهم عبد المطلب بن هاشم أحيوا حنيفية رحمن اليمن بعد سبعة قرون، وبعد أن ساق المؤلف جانباً من حديث الحنفاء مثل قس بن ساعدة، وسويد بن عامر، وزيد بن عمرو بن ثعلبة وغيرهم - أخذ يؤكد المطلق الذي اخترعه وهو أن الحنفاء كانوا ينتظرون نبيا تقع علي يده حركة الإصلاح المنشود في جمع العرب ويزعم أن العرب كانوا علي استعداد لدخول اليهودية أو النصرانية لولا أنهم بدأوا النهضة القومية بالإسلام، تلك الديانة الخاصة التي اعتبرها رمزا لقومية العرب ومعبرة عن عروبيتهم وأن الحنيفية اعلنت عن نفسها تحت اسم الإسلام عندما تنبأ محمد - صلي الله عليه وسلم..

وهكذا بكل الخيث والمكيدة والفسطاط يطعن المؤلف في الإسلام ونبى الإسلام، فالمسألة عنده مجرد ادعاء نبوة تلبية لجوانب نفسية لدي الحنفاء وجوانب سياسية لدي الحزب الهاشمي..

ومتى أسلم الحنفاء أنفسهم لمحمد - صلي الله عليه وسلم - لينوب عنهم في ادعاء النبوة؟! وهل كان بينهم ميثاق شرف حتي لا ينازعوه دعوي النبوة؟!

ومتى كان العرب علي استعداد لاعتناق النصرانية وقد مضى عليها سبعة قرون ولم يلتفتوا إليها ، أو اعتناق اليهودية وقد تقادم عهدها؟!

وهل الإسلام دعوة قومية؟!

ألا فلتخرس تلك الأكسنة التي تفتري الكذب..

فالإسلام منذ يومه الأول وهو ينادي العالمين ويتخطي حجب الزمان والمكان، ويتحدى الإنس والجن.. ﴿ وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾. (القلم - ٥٢)

﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ (التكوير - ٢٧)

﴿ تبارك الذي نزل الفرقان علي عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ (الفرقان - ١)

﴿ قل ياليتها الناس إنني رسول الله إليكم جميعا ﴾ (الأعراف - ١٥٨)

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (الأنبياء ١٠٧)

ظهور النبي المنتظر

يزعم المؤلف أن النبي بعدما تزوج من السيدة خديجة بنت خويلد أكثر نساء العرب مالا - أطمأن نفسيا وأنصرف من السعي وراء الرزق إلي التفكير في شئون قومه السياسية والدينية.

ويسوق المؤلف رواية مرفوضة تاريخيا تزعم أن السيدة خديجة تأمرت مع أخيها وسقت أباهما خمرا لينذهب وعيه ولا يعترض أثناء حفل الخطبة، ولما أفاق أنكر أن يكون زوج ابنته لمحمد بن عبد الله - صلي الله عليه وسلم - ثم يسوق عبارته التي تحمل ألف معنى ومعني ويقول ص ٨٠:

وبعدها أخذ محمد - صلي الله عليه وسلم - يتابع خطوات جده عبد المطلب إلي غار حراء ، مما حول هذا الكهف إلي مكان مقدس، ودخل التاريخ دون مسلايين مثله، وبالحنيفية آمن ، ولم يكذب يبلغ الأربعين من عمره حتي حسم الأمر بإعلانه أنه نبي الأمة بعد أن أوحى إليه إله إبراهيم : ﴿ أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا ﴾ ..

وهكذا تتساقط دعاوي المؤلف الكاذبة حول المنهج العلمي والرؤية المنصفة والجهد الصارم والبحث الجاد ويقدم إفرازات شاذة منكرة تقوم علي التهويمات والتهويلات والتجريجات - علي حد تعبيره - فهل انقطع سيدنا محمد - صلي الله عليه وسلم - عن السعي علي الرزق بعد زواجه السيدة خديجة؟! وهل تزوجته السيدة خديجة إلا ليتجر في مالها؟ وهل اختارته لنفسها إلا لأنه الصادق الأمين؟!

ثم إن الرواية المزعومة بأن أباهما حضر حفل خطوبتها مخمورا ووافق علي زواجها دون وعي رفضها أكثر علماء السيرة، لأن أباهما مات قبل حرب الفجار التي شهدتها النبي - صلي الله عليه وسلم - وعمره أربعة عشر عاما، وأكد الثقات من أهل التاريخ أن عمها عمرو بن أسد هو الذي زوجها، ذكر ذلك السهيلي والواقدي والطبري.

الحزب الهاشمي

**دور الحزب الهاشمي
والعقيدة الحنفية
في التمهيد لقيام دولة
العرب الإسلامية**

القسم الثاني

تأسيس (١)

«إذا أراد الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء» - قالها عبدالمطلب بن هاشم، وهو يشير إلى أبنائه وحفدته، فبرغم التفكك القبلي في بيئة البداوة، التي عاشتها جزيرة العرب، فإن هناك من استطاع أن يقرأ الظروف الموضوعية لمدينة مكة بوجه خاص، وأن يخرج من قراءته برؤية واضحة؛ هي إمكان قيام وحدة سياسية بين عرب الجزيرة، تكون نواتها ومركزها (مكة) تحديدا، برغم واقع الجزيرة المتشردم آنذاك.

وكان هناك من هو علي رأي عبد المطلب من ذوي النظر الثاقب، والفكر المنهجي المخطط الذين استطاعوا أن يصلوا إلى النتيجة نفسها؛ بعد قراءة واعية للخريطة السياسية، والظروف الاجتماعية والاقتصادية، لكن الكثرة الغالبة لم تكن مع هذه الرؤية؛ حتي اليهود الذين كانوا يعيشون بين ظهرائي العرب - كعرب - ما خطر لهم هذا التوقع قط، وإنما كانوا يترفعون علي سائر العرب، ويفاضرون بأن لهم من الأنبياء عددا وعدة، ومن الأسفار المقدسة كتاب سماوي المصدر؛ ومن ثم أجاز الأستاذ العقاد لنفسه - وهو رجل متزن ومتوازن - أن يجزم قاطعا: «بأن شأن اليهودية في توضيح هذه الحقائق كان أعظم من كل شأن لها في جزيرة العرب»^(١)، وهذه الحقائق التي يعنيها الأستاذ العقاد هي أنه برغم عدم قراءتهم الصحيحة لإفرازات الواقع علي الأقل بالنسبة لمكة؛ فإن حكاياتهم عن مغامرات أنبيائهم القدامى، وعن دولتهم الغابرة التي أنشأها الملك النبي داود، وما لحقها من تهويلات ومبالغات، كانت وراء الحلم الذي داعب خيال سداة العرب وأشرافهم؛ حتي بدا لكل منهم طيف زعامته للدولة الموحدة، مشرقا في الخيال، تدعسه ما بدأت تشهده الجزيرة في مناطق متعددة من محاولات لتوحيد القبائل سياسيا؛ سواء عن طريق التحالفات الجانبية التي شكلت نويات مرجوة لوحدة اكبر، أو عن طريق إخضاع قبيلة لأخرى، أو التحالفات التي تتفق ومنطق البداوة، والتي كانت تتم بين القبائل المنتمية إلي سلف واحد، مما يجعل انتظامها تحت إمرة زعيم واحد أمرا أيسر، خاصة عند حدوث جلل طارئ أو خطر مشترك، ولا ننسي المحاولات الأخرى المباشرة التي اتخذت صيغة الملك وصبغته؛ كمحاولة (زهير الجنبلي) زعيم قضاة تملك نفسه علي بكر

وتغلب^(٢)، أو الممالك التي قامت فعلا من زمن سابق لكن في ظروف مختلفة علي حدود الامبراطوريات الكبرى - مثل مملكة الحيرة، ومملكة الغساسنة.

لكن بقية الناس - حتي داخل مكة - ممن كانوا يعتبرون أنفسهم عقلاء لم يكونوا مع هذا التفاؤل، ولا مع هذا الجموح في الآمال، فهذا الأسود بن عبدالعزي يقدم الاعتراض البدهي والواضح والمباشر؛ قائلا: «إلا إن مكة لقاح لاتدين ملك»^(٣)، وهو اعتراض يستند إلي قراءة أخرى؛ فالعرب - أيًا كان الظرف الاجتماعي - لا تقبل بفرد يملك عليهم ويسود؛ لأن معنى ذلك سيادة عشيرة علي بقية العشائر، وقبيلة علي بقية القبائل، وهو ما تاباه أنفة الكبرياء القبلي وتنفر منه، ولعل هذه القراءة تجد حجتها البالغة في تجربة رجل مثل النعمان بن المنذر، الذي ورث الملك أبا عن جد في مملكة الحيرة، ومع ذلك وقف يلقي خطابه أمام كسري الفرس، وفي حضرة وفود دول عدة، مدافعا عن عرويته بقوله:

«فليست أمة من الأمم إلا وجهلت آباءها، وأصولها، وكثيرا من أوائلها، حتي إن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه دينا، فلا ينسبه ولا يعرفه، وليس أحد من العرب إلا يسمي آباه أبا فأبا، حاطوا بذلك أحسابهم، وحفظوا به أنسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه، ولا ينتسب إلي غير نسيه، ولا يدعي لغير أبيه.. وأما تحاربهم وأكل بعضهم بعضا، وتركهم الانقياد إلي رجل يسوسهم ويجمعهم، فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم، إذا أنست من نفسها ضعفا، وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف، وإنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد، يعرف فضلهم علي سائر غيرهم، فيلقون إليهم أمورهم، وينقادون لهم بأزماتهم، وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم، حتي لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين»^(٤).

والخطاب هنا - سواء صحت نسيته للنعمان بن المنذر أو لم تصح - لصاحب رؤية سياسية فذة؛ حاول أن يوضح - بإيجاز الظرف الاجتماعي العربي؛ الذي حال حتي هذا الوقت دون قيام وحدة سياسية كبرى لعرب الجزيرة؛ ذلك الظرف المتمثل في **نظام قبلي، وعصبية عشائرية**، كانت من لزوم مايلزم عن شكل المجتمع البدوي غير المستقر، للإبقاء علي دوام وجود القبيلة؛ باعتبارها وحدة عسكرية مقاتلة يلزمها

التماسك اللزج دوما، والذي كانت مادته اللاصقة؛ رابطة الدم التي اكتسبت قدسية مفرطة، وهو ما يفسر الشكل الديموقراطي البدائي الذي تمتعت به القبيلة؛ بحيث وقف جميع الأفراد داخلها علي قدم وساق، بمساواة تامة، وبمعيار الانتساب لأب واحد، وذلك وحده كان كفيلا بإلغاء أي تمايز، إضافة لظرف آخر دعم هذه المساواة، وهو مواجهتهم جميعا لذات المصير دوما، كمقاتلين.

والخطاب يوضح أيضا - بشكل وضاه - الأسباب التي لم تؤد بالنظام البدوي إلى إفراز مؤسسات سياسية (ملكية) متوارثة؛ لأن القبيلة وحدة عسكرية طارئة، وزعامتها بدورها أمر طارئ متغير؛ تبعا لمقتضيات الصراع الناشيء وظروفه؛ تلك المقتضيات التي تحدد سمات الزعيم المطلوب أنبيا، وعليه فالزعامة كانت تمنح منحا لصاحب القدرات التي تناسب الظروف ومقتضياتها، وهي صفات مكتسبة لا تنتقل بالوراثة؛ علي حين ينضوي الجميع في الظروف الاعتيادية تحت لواء الأحكم، الأكبر، الأكثر دراية والأكثر قدرة علي المنح والعطاء، وفي كلتا الحالتين تظل المساواة حاضرة؛ مما جعل البدوي واعيا تماما لفرديته، مصرا علي الاعتداد بنفسه؛ بإسراف تمثله دواوين العرب في الحماسة، والفخر، والاعتزاز بالفرد أو بالقبيلة أو بالنسب.

وفي خطاب (النعمان) دعم آخر لوجهة نظر (الأسود بن عبدالعزيز)؛ فهو يؤكد أن الأمم إنما تقبل الخضوع للملك فرد في وحدة سياسية، إذا «تخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف». وقد أثبت الحجاز - ومكة بالذات - أنه يعيد المثال، ولا يتخوف نهوض عدوه إليه، فبينما كانت الممالك العربية قد وقعت تحت الاحتلال أو النفوذ الأجنبي - ففقدت اليمن استقلالها منذ الربع الأول من القرن السادس الميلادي، وسقطت تحت حكم الأحباش ثم الفرس، وفقدت مملكة الحيرة استقلالها وتحولت إلى إمارة يحكمها أمير فارسي، واضطربت أحوال المملكة الغسانية بعد أن قلب لها الرومان ظهر المجن - فإن منطقة الحجاز بمدينتيها الرائدتين (مكة ويثرب)، كانت تتمتع باستقلال نسبي، هيأها له وضعها الجغرافي، وعمورة الطريق إليها؛ فكانت هي البيئة العربية الخالصة؛ البعيدة عن مجال الصراع الدولي، وعن التأثير بالحضارات الأجنبية؛ بدون أن تفقد التواصل معها، ولم تخضع لحاكم أجنبي، ومع ذلك فلم تكن فيها ممالك بالمعني الحقيقي، ولا وحدة سياسية كبيرة تنتظم أمر قبائل الحجاز جميعا، وهذا كله إنما هو دعم حقيقي لرأي (الأسود بن عبدالعزيز)!

وإزاء كل هذه العوائق الواضحة، والمحيطات السافرة للحلم، وللأمل، وللتوقع، لم يجد الآخرون سوي الاهتداء إلي أنه لا حل سوي أن يكون منشيء الدولة المرتقبة نبيا مثل داود، وعندما وصلوا إلي هذا؛ فشأ الأمر بسرعة هائلة بين العرب؛ حتي اشتد الإرهاص بالنبي المنتظر خلال فترة وجيزة، وأمن

هؤلاء بذلك، وأخذوا يسعون للتوطئة للعظيم الآتي؛ وإن ظلت المشاعر القبلية داخل النفوس التي تهفو للوحدة؛ وظن كل منهم أن الآتي سيكون منهم؛ مثل (أمية بن عبد الله الثقفي) الذي راودته نفسه بالنبوة والملك؛ فقام ينادي:

ألا نبي منا فيخبرتنا ما بعد غايتنا في رأس محيانا؟

لكن العجيب فعلا ألا يمضي من السنين غير قليل، حتي تقوم في جزيرة العرب دولة واحدة بل دولة قوية ومقتدرة، تطوي تحت جناحيها - وفي زمن قياسي - ممالك الروم والعجم؛ بعد أن أعلن حفيد عبد المطلب بن هاشم : محمد بن عبد الله (صلي الله عليه وسلم) أنه النبي المنتظر!

هوامش

- ١ - عباس محمود العقاد: طوائف البعثة المحمدية، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٧٣.
- ٢ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ليدن، بريل، ١٨٨٦، ج ١، ص ٢٠٦.
- ٣ - عبد الملك بن هشام: السيرة النبوية، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ومحمد محيي الدين عبد الحميد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، القاهرة ١٩٧٤، ج ١، ص ٢٠٦.
- ٤ - ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق د. عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت ط ٢، ١٩٨٧، ص ٢٧٧، ٢٧٨.

تأسيس (٢)

يقول الدكتور (أحمد شلبي) في كتابه (السيرة النبوية العطرة): «إن أهم مصادر الثروة عند العرب، ارتبطت بالتجارة، وقد اشتهر العرب في الجاهلية بالتجارة شهرة واسعة؛ حتي قيل إن كل عربي تاجر. وكانت الجزيرة العربية تمثل بحرا واسعا تخترقه قوافل الإبل في شبه مجموعات من السفن؛ تخر عباب البحر الفسيح، وقد حلت هذه القوافل محل الملاحة بالبحر الأحمر الذي كانت فيه الملاحة عسيرة.. وكان هناك طريقان رئيسيان للقوافل؛ أحدهما من الشمال إلي الجنوب؛ وغير بعيد عن البحر الأحمر؛ وهو في الشمال يتفرع إلي الشمال الشرقي تجاه سوريا، وإلي الجنوب الغربي تجاه فلسطين؛ وهو في الجنوب يسير شوطا مع ساحل حضرموت، أما الطريق الثاني فهو يخترق الجزيرة العربية من البحر الأحمر إلي الخليج العربي مارا بمكة؛ ويتفرع في قلب الجزيرة إلي فرعين: يتجه أحدهما إلي الشمال الشرقي فيصل شط العرب، ويتجه الآخر إلي الجنوب الشرقي ويسير مع الخليج العربي مارا بذي ومسقط وظفار. ولما وقعت اليمن فريسة الاستعمار الحبشي ثم الفارسي، استطاع المستعمرون أن يسيطروا علي النشاط البحري الذي انكمش انكماشاً ظاهراً، أما النشاط البري داخل الجزيرة، فقد انتقل إلي مكة؛ لأن نفوذ القوى الأجنبية لم يستطع قط أن يمتد إلي قلب الجزيرة»^(١).

ثم إن الدكتور (شلبي) يعمد إلي إعادة تفصيل هذه المسألة في موضع آخر من كتابه؛ فيقول: «إن هؤلاء البدو استطاعوا أن يلعبوا دورا مهما في تجارة العالم، في تلك الأزمان السحيقة.. ولم تكن سفن ذلك العهد تستطيع استعمال البحر الأحمر المملوء بالجزر، التي تجعل الملاحة خطرا عليها، ومن عيوب الملاحة في البحر الأحمر أيضا أن شواطئه قليلة الموانئ، وأن به كثيرا من الشطوط الضحلة، التي كان اقتراب السفن منها أمرا محفوفاً بالخطر، ولم تكن السفن تستطيع استعمال الخليج الفارسي؛ بسبب وجود الفرس علي ساحله الشمالي. وهم أعداء لسكان حوض البحر المتوسط. وعلي هذا أصبحت المواصلات البرية هي الطريق المهم للتجارة عبر البادية؛ بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب، وقد حدد البدو أماكن للراحة

والاستجمام طوال الطريق فكانت بمثابة محطات يتزودون منها بالماء والذاد، وكانت أيضا بمثابة مخازن يودعون فيها بعض المتاجر؛ لتلحق بقافلة أخرى عبر طريق آخر» (٢).

ويضيف هنا الأستاذ (أحمد أمين) قوله: **إن «طريق البحر لم يكن طريقا مأمونا، فالتجأ التجار إلى البحر يسلكونه، ولكن طريق البر نفسه كان طويلا وخطرا؛ لذلك أحاطوه بشيء من العناية؛ كأن تخرج التجارة في قوافل، وأن تسير القوافل في أزمنة محددة، وطرق محددة»**، ثم يشير إلي تحول هو جد خطير؛ برغم أنه كان ناتجا طبيعيا من تحول مكة من مجرد محطة على الطريق، تأخذ عشورها وضربتها؛ إلى حاضرة تجارية تظهر فيها طبقة من التجار تمتكر الأمر لنفسها فيقول:

«ثم انحط اليمنيون.. وحل محلهم في القبض على ناصية التجارة عرب الحجاز، وكان ذلك منذ بداية القرن السادس للميلاد؛ فكان هؤلاء الحجازيون يشترون السلع من اليمنيين والحبشيين؛ ثم يبيعونها علي حسابهم في أسواق الشام ومصر، وقليل ما كانوا يبيعونها في أسواق فارس؛ لأن التجارة مع الفرس كانت في يد عرب الحيرة، وجعل عرب الحجاز مكة قاعدة لتجارهم، ووضعوا الطريق تحت حمايتهم» (٣).

ومصادقا لقول الأستاذ (أحمد أمين) نجد الروايات الإخبارية تجمع علي قيام (تبع) ملك اليمن في وقت مبكر بحملة لإخضاع مكة ويثرب؛ كأهم المحطات التجارية علي الطريق، ويقول (المسعودي): «وهو الملك السائر من اليمن إلي الحجاز، وكانت له مع الأوس والخزرج حروب، وأراد هدم الكعبة؛ فمنعه من كان معه من أحبار يهود» (٤). كما تجمع هذه الروايات علي عدد آخر من محاولات ملوك حمير التبابعة، لتوسيع نفوذهم وسيطرتهم علي الخطوط التجارية في أماكن مختلفة من الجزيرة، ومنها قيام (تبع بن ملكي كرب) بتجريد حملتين: الأولى علي طريق التجارة مع الفرس، وقصدت منطقة الحيرة، والثانية علي طريق الشام مصر، وقصدت الحجاز» (٥)؛ هذا إضافة إلي حملة الفيل المشهورة علي مكة. ولعل الصراع الذي نشأ في اليمن بين الديانة اليهودية والديانة المسيحية كان ناتج سعي الرومان للحد من نفوذ اليمن وسيطرته علي الشريان التجاري، وعادة ما اتخذ مثل ذلك الصراع أشكالا دينية، وقد بدأ بلا جدال في تحالف الحبشة - كمنافس لليمن - مع الروم، واعتناق المسيحية؛ من أجل دعم سيطرتهم علي الطريق التجاري، ثم ظلت اليمن محلا لاصطراع الروم والفرس، أو اصطراع المسيحية المدعومة من الروم واليهودية المدعومة من الفرس،

لظروف اقتصادية بحثة؛ حتي الفتح الإسلامي سنة ٦٢٨ م.

وقد فشلت الحملات جميعا علي الحجاز ولم تحقق أغراضها. وما إن أطل القرن السادس علي ريعه الأخير حتي بدأت المنافسة بين مكة ويثرب؛ أهم محطتين في الحجاز، تبدو أكثر وضوحا، وكان ممكنا أن تصبح يثرب صاحبة شأن خطير في العصر الجاهلي، بحسبانها محطة مرور ضرورية يمر عليها الطريق التجاري القادم من مكة شمالا، لولا دخولها مرحلة تضرق، نتيجة الخلافات الداخلية التي ربما كان سببها تركيبتها الهجين، فبرغم تجانس السكان - فسكانها من الأوس والخزرج من اليمن وبطون اليهود يعودون إلي أصول يمنية - فإن العامل الديني ووجود اليهود فيها كان لاشك عاملا مؤججا للصراع الداخلي؛ حتي أشرفت علي هلاك كامل؛ أدبي بها إلي محاولة سبق لمكة؛ فكادت تقوم بها مملكة علي يد (عبدالله بن أبي بن أبي سلول) قبل الهجرة النبوية إليها^(٦).

ولم تكن قريش بريئة كل البراءة مما يحدث في يثرب، وإنما أسفرت عن توجهها بالتحالف مع الأوس ضد الخزرج يومي معبس ومضرس، وهو مما يلقي الضوء علي المستقبل القريب، **عندما يتحالف أهل يثرب وعلي رأسهم الخزرج مع النبي (صلي الله عليه وسلم) ضد قريش**، ويفسر لنا التحالف الذي سبق ذلك بين عبد المطلب بن هاشم ممثلا لبني هاشم، وبين الخزرج من أهل يثرب.

ومع نهاية القرن السادس الميلادي نجد مكة تقف علي الطريق؛ مالكة لمركز رئاسي لاشك فيه، بعد أن اتاحت لها الظروف الداخلية تجميع التجارة الخارجية في يدها، واتاحت لها الظروف الخارجية أن تستغل الأوضاع العالمية لصالحها، خاصة الصراع الدولي الهائل بين الروم والفرس في الشمال والجنوب، وهو الأمر الذي أعانها علي القيام بأمر **تجارة العالم، والتجّاح فيه بكفاية، أكسبت أهل مكة ثروة عظيمة،** فحظيت باحترام عربي عام؛ حتي باتت مؤهلة للزعامة، في وقت أخذ فيه العرب يتطلعون إلي منطقة عربية مستقلة؛ تتولي زعامة النهضة العربية وتقودها، أو كما يقول الدكتور أحمد الشريف: «أصبحت أهلا لأن تكون موضع النواة في قيام نهضة قومية عربية، وإطمأنت قريش إلي هذا المركز، وعملت علي دعمه، وحرصت علي دوامه»^(٧).

- ١ - د. أحمد شلبي: السيرة النبوية العطرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٣، ١٩٨٧، ج١، ص ١٢٤.
- ٢ - نفسه: ص ١٥٣.
- ٣ - أحمد أمين: فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٤، ١٩٨٧، ص ١٢ و ١٣.
- ٤ - المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت، د.ت، ج٢، ص ٧٦.
- ٥ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١، ص ١٠٨.
- ٦ - محمود الحوت: في طريق الميثولوجيا عند العرب، بيروت، دار النهار، ط٢، ١٩٧٩، ص ٥٩: ٦٢.
- ٧ - د. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدنية في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ص ٢٣٨.

الكميات

هكذا تناثرت - في الوسط الاجتماعي العربي - جماعات البشر علي هيئة قبائل متنافرة؛ لاحكم فيها ولا سلطة إلا للعرف القبلي، الذي يختلف بدوره باختلاف القبائل وظروفها. ومع تعدد القبائل تعددت المشيخات وكثر الشيوخ وأبطال الغزو؛ أولئك الذين تحولوا بعد موتهم إلي أسلاف مقدسين، وأقام لهم أخلاقهم التماثيل والمحاريب، ليلتمسوا عندهم العون كلما حزنهم أمر أو حل بهم جمل، ومن أجل هؤلاء الصالحين السالفين؛ أقيمت بيوت العبادة، وشرعت طرق التقرب إلي الأرباب أو الأسلاف (الرب لغة هو سيد الأسرة أو القبيلة وهو بعلها)؛ ومن ثم تعددت الأرباب بتعدد الأبطال والصالحين الراحلين، ويتعدد الأرباب تعددت الكعبات؛ حيث كانت الكعبة (البناء المكعب) هي الصيغة المعمارية المفضلة لبيوت أرباب الجاهلية، وأحياناً أخرى كانت هذه الكعبات تقام تقديساً للأحجار الغريبة والنادرة؛ مثل الأحجار البركانية أو النيزكية، وكلاهما كان يغلب عليه اللون الأسود نتيجة عوامل الاحتراق، ونظن هذا التقديس ناتجاً - إضافة لغرابة شكل الحجر - من كونه قادماً من عالم غيبي مجهول؛ فالحجر البركاني مقذوف ناري - من باطن الأرض وما صيغ حوله من أساطير قسمته طبقات ودرجات، واحتسبته عالماً لأرواح السالفين المقدسين - كذلك الحجر النيزكي، وربما كان أكثر جلالاً، لكونه كان يصل الأرض وسط مظاهرة احتفالية سماوية تخلب لب البدوي المبهور؛ فهو يهبط بسرعة فائقة محتكاً بغلاف الأرض الغازي؛ فيشتعل مضيئاً ومخلفاً وراءه ذيلًا هائلًا، لذلك؛ كان هول رؤيته في التصور الجاهلي دافعاً لحساباته ساقطاً من عرش الآلهة في السماء؛ حاملاً معه ضياء هذا المكان النوراني؛ ثم كان طبيعيًا أن يحاط بالترسيم والتبجيل.

ومع كثرة الأحجار القادمة من عند الأسلاف، أو الهابطة من السماء؛ كثرت أيضاً الكعبات. وعن الكعبات ومحجات العرب يقول الباحث (محمود سليم الصوت): «يجب ألا يخطر علي بال أحد أن مكة - وإن ارتفعت مكانتها عن سواها من أماكن العبادة - هي القبة الوحيدة في الجزيرة؛ فقد كان للعرب كعبات عديدة أخرى تحج إليها في مواسم معينة وغير معينة، تعتر (تذبح) عندها، وتقدم لها الذنور والهدايا، وتطوف بها، ثم ترحل عنها بعد أن تكون قد قامت بجميع المناسك الدينية المطلوبة»^(١).

وقد اشتهر من بيوت الآلهة أو الكعبات ما وجدنا ذكره عند الهمداني (بيت اللات، وكعبة نجران، وكعبة شداد الإيادي، وكعبة غطفان)^(٢)، وما ذكره الزبيدي (بيت ذي الخلصة المعروف بالكعبة اليمانية)^(٣)، وما جاء عند ابن الكلبي (بيت ثقيف)^(٤).

إضافة إلي ما أحصاه جواد علي (كعبة ذي الشري، وكعبة ذي غابة الملقب بالقدس)، ومحجات أخرى لألهة مثل (اللات، وديان، وصالح، ورضا، ورحيم، وكعبة مكة، وبيت العزي قرب عرقات، وبيت مناة)^(٥)، هذا مع ما جاء في قول الأستاذ العقاد عن «.. البيوت التي تعرف ببيوت الله أو البيوت الحرام، ويقصدها الحجاج في مواسم معلومة تشترك فيها القبائل.. وكان منها في الجزيرة العربية عدة بيوت مشهورة، وهي بيت الأقيصر، وبيت ذي الخلصة، وبيت رضاء، وبيت نجران، وبيت مكة.. وكان بيت الأقيصر في مشارف مقصد القبائل؛ من قضاة ولخم وجذام وعاملة. يحجون إليه ويحلقون رؤوسهم عنده.. فالأمر الذي لا يجوز الشك فيه أن البيوت الحرام وجدت في الجزيرة العربية؛ لأنها كانت لازمة.. وقد اجتمع لبيت مكة من البيوت الحرام مالم يجمع لبيت آخر في أنحاء الجزيرة؛ لأن مكة كانت ملتقى القوافل؛ بين الجنوب والشمال، وبين الشرق والغرب»^(٦). ويفهم من العقاد أن هذه البيوت كانت محرمة ولها إمامها الحرام، لكن بيت مكة بالتحديد أخذ في التمايز؛ لموقع مكة العظيم علي طرق القوافل التجارية جميعا؛ حتي جاء وقت - كما قلنا - أصبحت فيه مكة ملتقى تجارة العالم، وأصبح أهلها أهم تجار الدنيا.

ويمكننا هنا التمييز بين مفهوم العربي الجاهلي لمعني الألوهية ومعني الربوبية؛ فالألوهية تعني إلها غير منظور يسكن السماء، ومن هناك يتساقط ماطر بيته الإلهي من أن لاخر؛ علي هيئة أحجار سوداء، في حين أن الربوبية تشير إلي تقديس للأسلاف يتفق حجمه مع أهمية رابطة الدم عند العربي البدوي. وعلي هذا النحو؛ عبد النبطيون حجرا أسود يرمز إلي الشمس كإله للسماء^(٧)، وعبد الهذليون حجرا أسود يرمز لمناة، وكان ذو الشري حجرا أسود، وكذلك كانت الكعبة المكية إطاراً لحجر أسود^(٨)، كما كانت باقي الكعبات تتسم بذات السمة؛ فهي أطر لأحجار سود. وسميت هذه الكعبات ببيوت الله؛ لأن كل بيت منها فيه حجر من بيت الإله الذي في السماء؛ تمييزاً له عن الأرباب التي لم تكن سوي مجرد تماثيل أو أحجار بركانية توضع في أفتية الكعبات؛ انتفاعاً ببركات الأسلاف الصالحين، وتشفعاً بهم عند إله السماء.

وواضح لدي أي باحث أن هذا التفرق العقائدي، وتعدد العبادات والأرباب؛ قد ساعدت فعالية في زيادة الفرقة القبلية، بحيث أصبح عائقاً دائماً ومستمر في سبيل المحاولات التي قامت من أجل خلق كيانات سياسية في جزيرة العرب؛ إضافة إلي الطبع القبلي الذي يأنف كبرياؤه ويتفر من فكرة سيادة سياسية واحدة - تلك

للمحاولات التي سبق أن أشرنا إليها - مثل محاولات زهير الكلبى، وعبدالله بن أبي، وكندة، والفساسنة، والمناذرة، وكان الدافع إليها جميعاً حلاً وأماً لأجبه الشعور الأتي بأمسك عنان تجارة العالم، ووجود هذا العالم مسترخياً ينزف في حروب طال مداها بين الإمبراطوريات الكبرى.

ولاتفوتنا الإشارة إلى أن مثل هذه المحاولات اتسمت بروح العصبية العربية الخالصة التي تجلت بدءاً في اعتناق المناطق العربية الواقعة تحت النفوذ الإمبراطوري؛ أيديولوجيات أو مذهبيات دينية تخالف مذاهب الإمبراطوريات؛ حتي بلغ الطموح مداه في هجمات عربية متفرقة - لكنها شرسة - كرا وفرا؛ علي حدود الدول العظمى؛ إلي درجة أن الشعور العربي بلغ أوجه؛ متمثلاً في فرح عام بالجزيرة كلها، عندما انكسر الفرس بعظمتهم وجبروتهم أمام حلف عربي صغير لقبائل شيبان وعجل وبكر بن وائل؛ في وقعة ذي قار^(٩)؛ مما دفع بالحلم إلي الخروج من ساحة التمني إلي ساحة التوقع؛ وربما التحقيق؛ مرهونا بشرط واحد هو تحالف وتوحد كتوحد العرب في ذي قار؛ ذلك التحالف الذي بدأت تباشيره في شعور عام دفع الوفود القبلية من كل صوب وحذب، إلي أن تحث خطاها بين الفياقي والقفار نحو اليمن؛ لتنهى معد بن يكر بن أو سيف بن ذي يزن بطرده الأحباش، وبعودة الحكم العربي إلي اليمن.

- ١- محمود الحوت: في طريق الميثولوجيا عند العرب، ص ١٢٣.
- ٢- الهمداني: الإكليل، بغداد، ١٩٣١، ج ٨، ص ٤٨.
- ٣- الزبيدي: تاج العروس، القاهرة، ١٣٠٦ هـ، ج ٧، ص ٢٧١.
- ٤- الكلبي: الأسماء، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٢٤، ص ١٦.
- ٥- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العلمي العراقي، بغداد، د.ت، ج ٥، متفرقات صفحات: ١٨٠، ١٥٢، ١٥٣، ٢١٧، ٢٢٤.
- ٦- العقاد: طوائف النبعة الممديّة، ص ١٣٠ و ١٣١.
- ٧- د. خليل أحمد خليل: مضمون الأسطورة في الفكر العربي، الطليعة، بيروت، ١٩٧٧، ص ٤٣.
- ٨- الحوت: في طريق الميثولوجيا عند العرب، ص ٦٢، ٥٩.
- ٩- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٢٠٠.

مكة: حلم السيادة

وقد لعب جدل السياسة الدولية، وما تبعه من تغيرات هائلة علي المستوى الاقتصادي؛ دورا خطيرا لصالح عرب الجزيرة؛ وبخاصة في يثرب ومكة؛ حيث أخذت أوضاع الخط التجاري تضطرب وتتقلب؛ مما أثر علي بنية التركيب الاجتماعي في المدينتين؛ وبخاصة مكة التي تطورت كمحطة مرور علي طريق القوافل التجارية، حتي أضحي أهلها في حالة تناقض مع الشكل الاجتماعي البدوي المتفكك وغير المستقر؛ فبدأت تدخل مرحلة تحولات بنيوية واضحة في تركيبها الاجتماعي، وبدأت تضمحل في داخلها التركيبية القبلية، مع إفراز جديد لمواقع سلطة ومؤسسات لم تكن موجودة من قبل، وهو إفراز طبيعي للاستقرار والملكية، وما يتبعه بالضرورة من صراع حول امتلاك وسائل الإنتاج، ثم السلطة السياسية؛ بعد أن اشتدت الحاجة إلي استقرار أمثل، للقيام علي شئون هذا العمل التجاري الهائل، وتقسيم الأدوار حول هذا العمل، ثم الحاجة إلي حراسة وحماية قوافل التجارة التي أصبحت تجارة المكيين أنفسهم، وأموالهم هم، وتوفير جو من الأمن العام، وما يترتب علي ذلك من ضرورة إنشاء جيش منظم للقيام بالأمر؛ كان أهم عناصره وركائزه طبقة العبيد، ومن ثم كان حتميا أن يتطور المجتمع المكي من مجتمع يعيش ديموقراطية ومساواة بدائية إلي مجتمع متمايز طبقيا.

ويشرح لنا الدكتور (أحمد الشريف) ظروف المجتمع المكي من الداخل؛ فيقول: «.. غير أن الثروة لم تكن موزعة توزيعا عادلا؛ فقد كانت الهوة بين الأغنياء والفقراء كبيرة من الناحية الاقتصادية.. وكان التفاوت الطبقي موجودا علي الرغم من الإحساس بالقرابة، ووجود علاقات الحلف والولاء، وعلي الرغم من الإحساس النفسي العام بالمساواة - ومتمثلا في الفروق الواضحة بين طبقة الصرحاء وطبقة الموالي، بالنظر إلي ما كانت تكفله الثروة وشرف البيت لصاحبها؛ من تأهيل للدخول في مراكز القيادة والزعامة.. وكان العرب يتطلعون إلي مثل جديدة في الأخلاق والاجتماع تساير الطبع العربي»^(١).

وعليه فقد تهيأت مكة لإفراز عناصر قيادية عربية، كما تحدث أحدث الجدل الدائر للكعبة للمكة أن تكون الكعبة الأري والمعج الأقدس؛ دون غيرها من الكعبات، وساعد علي ذلك أسواق مكة المختلفة ومواسمها المتنوعة التي وضعت لجذب التجار؛ ثم انتشرت لغة قريش وعاداتها بين القبائل الحالة والمرحلة؛ بعد أن حتمت مصالح القرشيين التجارية عليهم اليقظة والاهتمام بما يجري حول جزيرتهم من أحداث،

لتأثير هذه الأحداث المباشر علي ما بأيديهم، وكان هذا الوعي دافعا لتزعة قوية من التسامح الديني، ولنضوج ميزهم عن حوّلهم من أعراب؛ فاستضافوا في كعبتهم المكية الأرياب المرتحلة برفقة أصحابها التجار وقاموا بتبني هذه الأرياب تدريجيا، فكان أن تركها أصحابها في كعبة مكة، ليعودوها في مواسمها؛ فكثر المواسم المكية بالاحتفالات الدينية بالأرياب المختلفة، وكثر أيضا الخير والبركة من التجارة، وكان حتميا أن تهفو قلوب العرب وتجتمع عند كعبة فيها أربابهم ومعاشهم وأمنهم ومرحهم وسمهرهم، وأن يضمحل بالتدريج شأن بقية الكعبات التي توارت في الظل ثم في الزوال حتي طواها النسيان.

وكان موقع مكة الجغرافي بعيدا عن يد البطش الامبراطوري (فارسية أو رومانية)، إضافة إلي حالة الضعف والانهيار التي أصابت هذه الامبراطوريات؛ مع الفشل الذريع الذي منيت به المحاولة اليتيمة من روما لضرب مكة كمركز تجاري قوي بواسطة جيش أبرهة الحبشي في عام الفيل، عوامل مجتمعة ساعدت علي صعود النجم المكي واتساع السطوة المكية؛ مما أعطي القرشيين الضوء الأخضر للقيام بالدور التاريخي الذي حتمته الظروف عليهم؛ خاصة بعد أن تدهورت اليمن مرة أخرى، وأصبحت قاصرة عن القيام بهذا الدور، وانتهت كتابع للدولة الفارسية.

وإن ارتفاع النجم المكي وصعوده بعد حملة الفيل، أمر يحتاج إلي الوقوف معه وقفة سريعة؛ توضح لنا إلي أي مدى بلغ أمر قریش في نفوس القوم، إلي الحد الذي دفع العرب جميعا إلي رجم قبر أبي رغال؛ دليل الجيش الغازي، وإلي الاعتقاد الوثائق بررب الكعبة المكية الذي صعد عن بيته جيشا ما كان ممكنا أن يصده العرب؛ تلك الثقة التي تجلت في الاعتقاد بأن جيش أبرهة قد تعرض لهجوم جوي فريد في نوعه، إذ أرسل الله علي الجيش طيوراً ترميه بالأحجار، وينقل السهيلي عن النقاش: «أن الطير كانت أنيابها كالسباع، وأكفها كأكف الكلاب، وذكر البرقي أن ابن عباس قال: أصغر الحجارة كرأس الإنسان، وكبارها كالإبل، وهذا الذي ذكره البرقي ذكره ابن إسحق في رواية يونس عنه، وفي تفسير النقاش أن السيل احتمل جثثهم فالقاهما في البحر» (٢). وبهذا الاعتقاد أرسل (رؤبة بن العجاج) رجزه قائلا:

ومسهم مامس أصحاب الفيل ترميهم حجارة من سجيل
ولعب بهم طيـــــر إبابيل فصيروا مثل عصاف مأكول (٣)

ويروي ابن هشام في متن شرح السهيلي للسيرة: «.. وكان اسم الفيل محمودا، فلما

وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب حتي قام إلي جنب الفيل، ثم أخذ بأنثته فقال: ابرك يا محمود، أو أرجع راشدا من حيث جئت فإني في بلد الله الحرام، ثم أرسل أنثته؛ فبرك الفيل، وخرج نفيل بن حبيب يشدد حتي أصعد الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى، فأسخلوا محاجن لهم مراقبة فيزغوه بها فأبى، فوجهوه راجعا إلي اليمن فقام يهرول. فأرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها؛ حجر في منقاره وحجران في رجليه؛ أمثال الحمص والعدس لاتصيب منهم أحدا إلا هلك^(٤).

وابن نفيل صاحب هذه الكرامة، تمتد كراماته في التراث لتلحق حفيده (عمر ابن زيد بن نفيل) علي ما سنري، وابن نفيل يسجل شهادته علي ما حدث بقوله:

حمدت الله إذ أبصرت طيرا وخفت حجارة تلقي علينا^(٥)

و ذات الحديث هو أيضا ما دفع (عبد الله بن الزبيري) ليرسل شعره قائلا:

تنكلوا عن بطن مكة إنها كانت قديما لايرام حريمها

لم تخلق الشعري ليالي حرمت إذ لاعزيز من الأنام يرومها

سائل أمير الجيش عنها ما رأي ولسوف ينبي الجاهلين عليهما

ولم يعيش بعد الإياب سقيهما^(٦)

أما (عبد المطلب بن هاشم) زعيم قريش آنذاك فقد نصح بعدم التعرض لجيش أبرهة، ويأن يترك مكة أهلها إلي شعاب الجبال، ثم توجه إلي أبرهة مع يعمر بن نفاثة وخويلد بن وائلة، يعرضون عليه ثلث أموال تهامة علي أن يرجع عنهم قرفض^(٧)، فرجع عبد المطلب يتاجي ربه:

اللهم إن العبد يمنح حله فامنع حلالك

لايغلبن صايبهم ومحالهم غدوا محالك

إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدالك^(٨)

أما ابن هشام فيتابع سرد الأحداث قائلا: .. وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، كلما سقطت أنملة أتبعته منة منة تمت قريبا وبما، حتي قدموا به صنعاء، وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتي انصدع صدره عن قلبه فيما

يزعمون، قال ابن إسحق: حدثني يعقوب بن عتبة أنه حدث: إن أول ما رؤيت الحصبة والجذري في أرض العرب تلك العام (٩) وهو ما ترك في الجسد مثل الحمص والعنص، وأما الأستاذ عباس العقاد فكان يبدو علي قناعة تامة بدور الجذري في هزيمة جيش الفيل، فيقول مؤكداً جازماً قاطعاً: «وقد حدث بعد ذلك ما حدث مما لاشك، وهو فتك الجذري بجنود أبرهة وانهزامه عن البيت.. إن حديث الجذري الذي فشا سنة ٥٦٩ مثبت.. في تاريخ بروكوب Procope الوزير البيزنطي المعروف» (١٠).

ثم يختم ابن هشام الأمر بإعلان نتيجة حدث الفيل العظيم بقوله: «... فلما رد الله الحبيشة عن مكة، وأصابهم ما أصابهم من النعمة، أعظمت العرب قريشاً، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم» (١١).

أما كيف دخلت مكة هذا الدور؛ فهو ما سيعود بنا إلي عهد استفاضت في ذكره كتب التراث؛ ذلك العهد الذي استطاعت فيه قريش أن تستولي علي مكة قبل زمن الفيل بزمان، تحت قيادة (قصي بن كلاب)؛ ذلك القرشي الذي استطاع بعبقريته من نوع نادر أن يكون في مكة سيداً مطلقاً.

- ١- أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص ٢٤٢: ٢٤٤.
- ٢- عبد الرحمن السهيلي: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ضبط طه عبد الرموف سعد، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، ج ١، ص ٧٢.
- ٣- ابن هشام: السيرة النبوية ج ١، ص ٤٧: ٥١.
- ٤- ابن هشام: في كتاب الروض للسهيلي، ج ١، ص ٧١.
- ٥- ابن هشام: السيرة النبوية، ج ١، ص ٤٧: ٥١.
- ٦- ابن هشام: في كتاب الروض للسهيلي، ج ١ ص ٦٩.
- ٧- نفسه: ص ٧٠.
- ٨- نفسه: ص ٧٣.
- ٩- نفسه: في كتاب الروض للسهيلي، ج ١، ص ٧٣.
- ١٠- العقاد: طوائف البعثة المحمدية، ص ١٤٥ و ١٤٦.
- ١١- ابن هشام: في كتاب الروض للسهيلي، ج ١ ص ٧٧.

قصي ابن كلاب

تنبئنا كتب الأخبار أن محاولات السيطرة علي مكة مسألة قديمة. تعود في قدمها إلي قبيلة جرهم وهي من أصل يمني قحطاني، وكيف أنه قد اضطرع حول مكة عرب الجنوب القحطاني وعرب الشمال العدناني، فتنقل من سيادة جرهم إلي سيطرة إبياد بن نزار، ليغلبه عليها بعد ذلك مضر، ومن مضر تنتزعها خزاعة اليمنية مرة أخرى، لينتهي بها الأمر إلي الاستقرار في يد قريش؛ في قبضة قصي بن كلاب.

ومن البداية كان واضحاً مدي **دهاء قصي ووعيه السياسي**، وإدراكه لما يحدث علي المستوي الاجتماعي من جدل وتغير مطرد؛ إبان سعيه العبقري للاستيلاء علي السلطة، وانتزاعها لقريش من خزاعة؛ فقام يتوود إلي حليل؛ سيد خزاعة، وأدي الود إلي وداد المصاهرة، فتزوج قصي بنت حليل. وهنا يروي ابن هشام؛ فيقول: «إنه لما هلك حليل.. رأي قصي أنه أولي بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة.. فكلّم رجلاً من قريش وبني كنانة، ودعاهم إلي إخراج خزاعة من مكة، وبخدة استطاع أن يشتري من أبي غبشان الخزاعي - وكان عجوزاً خرفاً - مفاتيح الكعبة، مقابل رزق من الخمر وقعود في ليلة سامرة، ويقول الحافظ ابن كثير: «فاشتري قصي ولاية البيت منه برزق من الخمر وقعود؛ فكان يقال: أخسر من صفقة أبي غبشان»، ويزيد ابن هشام بقوله: «فكان قصي أول بني كعب بن لؤي أصاب ملكاً؛ أطاع له به قومه، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة، فحاز شرف مكة كلها»^(١).

ونفهم من كتب التراث أن خزاعة لم تستطع استعادة أمرها علي مكة، بعد أن تحالف مع قصي القرشيون والكنانيون وغيرهم، حتي انتهى الأمر بطرد الخزاعيين من مكة، وتولي قصي أمر الكعبة، وبدأ بفرض الضرائب والعشور علي القوافل التجارية المارة بمكة؛ مقابل تأمينهم، وتأمين السقاية والرفادة لهم، ويقول (المسعودي): «واستقام أمر قصي، وعشر علي من دخل مكة من غير قريش، وبني الكعبة، ورتب قريشا علي منازلها في النسب بمكة»^(٢). وهو قول يشير إلي تطور في خطط قصي لرفع شأن دولته المكية عن طريق الكعبة واستضافتها أرباب القبائل الأخرى، ثم إن (المسعودي) يربط بين خطط قصي ومعني التقريش (من قريش) والإيلاف (بمعني الأمن)؛ وهو أمر يظهر وعياً سياسياً واضحاً تمثل بعد استيلائه علي السلطة في إيفاد الرسل إلي الممالك علي أطراف الجزيرة؛ لإقامة علاقات مع هذه الممالك؛ ليعطي مكة بذلك دور الدولة، ويهدف طمأنة هذه الممالك علي تجارتها؛ ليستمر النشاط المار بمكة، فيقول المسعودي: «وأخذت قريش الإيلاف من الملوك، وتفسير ذلك الأمن، وتقريش، والتقريش الجمع»^(٣).

في حين يشير ابن كثير إلى منحي ثانٍ في معنى التقرّيش وقريش؛ يظهر بوضوح بداية تكون المجتمع المستقر، مرتبطاً بالنشاط الاقتصادي، أو التغيير في بنية المجتمع المكي؛ مع الاستقرار الملازم لتعاظم دورها لتصبح أهم محطة ترانزيت، ثم كان محتماً أن تكون أكثر المحطات أماناً؛ قياساً على ما أقرّزه الواقع السياسي العالمي، من انهيار تام لأنظمة حفظ الأمن التجاري على الخطوط الدولية، وما نتج عن ذلك من تراكم الثروة اللازمة لتحولات المجتمع المكي، وذلك بربطه بين معنى القرش، ومعنى الكسب والتقرّش؛ فيقول: «وأما اشتقاق قريش؛ فقيل من التقرّش وهو التجمع بعد التفرّق، وذلك في زمن قصي بن كلاب؛ فإنهم كانوا متفرّقين لجمعهم بالحرم، وقد قال حذافة بن غانم العدوي:

أبوكم قصي كان يدعي مجمعا به جمع الله القبائل من قهر

.. وقيل سميت قريش من التقرّش، وهو التكبس والتجارة، وحكاها ابن هشام رحمه الله، وقال الجوهري: القرش الكسب والجمع، وقد قرش يقرش.. قال البيهقي.. إن معاوية قال لابن عباس: فلم سميت قريش قريشا؟ فقال: لدابة تكون في البحر تكون أعظم دوابه يقال لها القرش، لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا أكلته.. فأنشده شعر الجمحي إذ يقول:

وقريش هي التي تسكن البحر بها سميت قريش قريشا
تأكل الغث والسمين ولا تترك لذي الجناحين ريشا
هكذا في البلاد هي قريش يأكلون البلاد أكلا كميشا
ولسهم أخسر الزمان نبي **يكثر القتل فيهم والخموشا (٤)**

وكان أبرز مؤسسات قصي السياسية هو دار الندوة التي بناها، والتي ربما كانت ذات الكعبة أو فناءها، فكانوا يجتمعون إليه ليقضي بينهم ويدير أمور دولته الصغيرة، ومن بعده كانت قريش تجتمع فيها لتتشاور في حربها وسلمها، ومن هناك تعقد ألويتها^(٥)؛ مما يعني دخول قريش مرحلة متحضرة وشوطاً بعيداً، ابتعد بها عن النظام المشيخي القبلي الذي حلت محله دار الندوة، ومثل القبائل فيه كبارؤهم أو (الملأ)، وهو مما سيفرز - بالضرورة - بداية الصراع حول امتلاك وسائل الإنتاج والسلطة السياسية كما سيأتي بيانه؛ فبالندوة ابتعد قصي بقريش وبمكة عن القبلية باتجاه الحضارة، وحل الملأ محل الشيوخ، وحلت الندوة محل الديمقراطية البدوية.

ثم يقول ابن كثير: «.. فكان قصي أول بني كعب أصاب ملكا، أطاع له به قومه، وكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة، فحاز شرف مكة كله، وقطع مكة أرباعا بين قومه؛ فأُنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة.. فكانت لقصي ابن كلاب جميع الرئاسة، من حجابة البيت وسدائنه، واللواء، وبني داراً لإزاحة الظلمات وفصل الخصومات سماها دار الندوة»^(٦). ولعله من الواضح أن اللواء أو قيادة الجيش، كان الإفراز الأخطر لجدل الأحداث، لبناء جيش قوي يمكنه الوفاء للملوك بالعهود، وتأمين التجارة التي استبدلت ببحر الرمال في الجزيرة بحار الدنيا بحروبها وويلها.

ولايغيب عن فطن أن امتلاك قصي السيادة علي مكة، قد تم وفق خطة مرسومة ومدروسة ومنظمة؛ قامت علي وعي سياسي نافذ هادف نحو غاية؛ وسائلها هي:

الدين؛ ممثلاً في الكعبة المكية؛ حتي قال ابن الأثير: «كان أمر قصي فيهم شرعا متبعاً، معرفة منهم لفضله وتيمنا بأمره»^(٧)، وقال الطبري: «فكان أمره في قومه في حياته وبعد موته كالدين المتبع»^(٨).

والمال؛ وقد تيسر من عشور التجارة، وتآليف القلوب حوله؛ بالبذل والعطاء كالمملوك؛ من خلال السقاية والرفادة.

وهكذا؛ استطاع أن يجمع بين يديه كل الوظائف الرئيسية والدينية والتشريعية؛ فكان أول سيد مطلق النفوذ في دولته الصغيرة؛ مكة.

- ١- ابن هشام: السيرة النبوية، ج ١، ص ١٠٩: ١١٥. انظر أيضاً ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق مجموعة من الأساتذة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٤، ١٩٨٨، ج ٢، ص ١٩٤.
- ٢- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، ص ٥٨.
- ٣- نفسه، ص ٩٥.
- ٤- ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ١٨٧.
- ٥- البلاذري: فتوح البلدان، ص ٦٠.
- ٦- ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ١٩٢.
- ٧- ابن الأثير: الكامل، ج ١، ص ١٨٢.
- ٨- ابن جوير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، د ١، ص ٢٥٩.

الصراع على السلطة بعد قصي

إيماناً منه بفرديّة الحكم المطلق، وحتى لا تتفرّق مكاسبه وتتناثر؛ ترك قصي بن كلاب كل سلطاته ووظائفه وسنته الرّكزية، لولده البكر عبد الدار، دون أخيه عبد مناف؛ ورحل إلى عالم الأسلاف، بعد أن أسس لقريش دولتها الواحدة في مكة، ولكن قصي ما كان يعلم أن الحقد سيملك قلب عبد مناف علي ملك عبد الدار وما حظي به من تشريف؛ فكان أن توارث الأبناء لحداد الآباء، وقام أبناء العمومة يستعدون القبائل علي بعضهم وتجمع بنو عبد مناف مع مؤيديهم في حلف المطيبين؛ فرد عليهم بنو عبد الدار وحزبهم بحلف الأحلاف، وتجمع الفريقان للقتال من أجل السيادة علي مكة. ويشرح ابن كثير الأمر في قوله: «ثم لما كبر قصي؛ قوض أمر هذه الوظائف التي كانت إليه من رئاسات قريش وشرقها؛ من الرفادة والسقاية والحجاية واللواء والندوة إلي ابنه عبد الدار، وكان أكبر ولده.. فلما انقرضوا تشاجر أبناؤهم في ذلك وقالوا: إنما خصص عبد الدار بذلك ليلحقه بإخوته؛ فنحن تستحق ما كان أبائنا يستحقونه، وقال بنو عبد الدار هذا أمر جعله لنا قصي فنحن أحق به، واختلفوا اختلافا كبيرا، وانقسمت بطون قريش فرقتين؛ فرقة بايعت بني عبد الدار وحالفتهم، وفرقة بايعت بني عبد مناف وحالفوهم علي ذلك»^(١).

ولعله واضح لمن أصاب خبرة ودرية مع كتب التراث؛ انحياز هؤلاء الكتّاب الواضح لحزب عبد مناف، فيما وضعوه من تفاسير للأمر والتسميات؛ كما ورد - كمثال - في شرح السيرة الطلبية لما حدث: «فلما مات عبد الدار وأخوه عبد مناف؛ أراد بنو عبد مناف وهم هاشم وعبد شمس والمطلب، وهؤلاء إخوة لأب وأم.. ونوئل أخوهم لأبيهم.. أن يأخذوا تلك الوظائف من بني عمهم عبد الدار، وأجمعوا علي المحاربة.. وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند باب الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها، وتعاقدوا هم وحلفائهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم تركيدا علي أنفسهم؛ فسموا المطيبين.. فتطيب منها بنو زهرة وبنو أسد بن عبد العزي، وبنو تميم بن مرة، وبنو الحارث بن فهر، فالمطيبون من قريش خمس قبائل، وتعاقد بنو عبد الدار وأحلافهم، وهم بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبنو عدي بن كعب، علي ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا، فسموا الأحلاف لتحالفهم بعد أن أخرجوا جفنة مملوءة دما، من دم جزور نحروها.. وصاروا يضعون أيديهم فيها ويلعنونها فسموا لعنة الدّم»^(٢).

وكان واضحا أنه برغم هذا الاضطراب؛ أن المصلحة الاقتصادية العامة فرضت تحسّسها علي جميع الأطراف؛ فكان الحرص علي المصالح التجارية، وما سبق وحققه

قصي من هبة لقريش؛ عاملا جوهريا في حقن الدماء، وانتهي الأمر بالسلام؛ حيث تقاسم أبناء العمومة ألوية الشرف الموروث حيث نجد (برهان الدين الحلبي) يتابع في سيرته القول: «... ثم اصطلحوا علي أن تكون السقاية والرفادة والقيادة لبني عبد مناف، والحجاية واللواء لبني عبد الدار، ودار الندوة بينهم بالاشتراك»^(٢)، لكن الواضح للمتعامل مع كتبنا الإخبارية أن بني عبد مناف قد علا نجمهم وفشا أمرهم؛ إلي حد أنهم كانوا هم سفراء الأمان والإيلاف لدول العالم الكبري حينذاك، وهو ما لاحظته الدكتور (أحمد شلبي) وسجله بقوله: «وكان بنو عبد مناف الأربعة يتوجهون إلي الجهات الرئيسية الأربع التي كانت تتجه إليها قريش، فكان هاشم يتجه إلي الشام، وعبد شمس إلي الحبشة، والمطلب إلي اليمن، ونوفل (أخوه غير الشقيق) إلي فارس، وكان تجار قريش يذهبون إلي هذه البلاد في زمة هؤلاء الإخوة الأربعة، لا يتعرض لهم أحد بسوء»^(٤). أما ابن كثير فقد أكد أن بني عبد مناف قد «صار إليهم الرياسة، وكان يقال إنهم المجيرون، وذلك لأنهم أخذوا لقومهم قريش الأمان من ملوك الأقاليم، لينخلوا في التجارات إلي بلادهم»^(٥).

وقد استقرت ألوية الشرف (القيادة والسقاية والرفادة) المنتزعة من بيت عبد الدار لبيت عبد مناف، في يد هاشم بن عبد مناف بالتحديد دون بقية إخوته، لذا فما إن رحل أخوه عبد شمس عن الدنيا حتي ساورت ولده أمية الأطماع في أخذ ما بيد عمه من ألوية الشرف بالقوة، وقف نوفل مؤقتا علي الحياد، وكادت الحرب تقطع صلات الرحم، وتهدر الدم الموصول، ومرة أخرى تقادي القوم الكارثة، فرضوا بالاحتكام إلي كاهن خزاعي؛ فقضي الكاهن بنفي أمية بن عبد شمس عشر سنوات إلي منفي اختياري، ولم يجد أمية بدا من الرضي بحكم ارتضاه؛ فشد رحاله إلي بلاد الشام ليقضي بين أهلها من السنوات عشر^(٦).

وهكذا؛ دارت العداوات حول هاشم؛ عداوة بني عبد الدار، وداوة بني عبد شمس الذي انضم إلي حزب عبد الدار (ونوفل يقف محايدا)؛ عداوة بني عبد الدار لاعتبار ما بيد هاشم من ألوية شرف هو حق خصهم به جدهم قصي، وداوة بني عبد شمس لاعتبار أنفسهم شركاء في التشريف الذي ناله هاشم بن عبد مناف.

وكانت السنوات العشر التي قضاها أمية بن عبد شمس في منفا الشام رصيدا لبيته الأموي من بعده؛ فقد ارتبط هناك بأهلها بأواصر الستين والمصاهرة التي كانت لأبنائه نخرا وعتادا؛ حيث قامت هناك دولة كبري بعد سنين؛ يرأسها حفيده معاوية؛ تلك التي عرفتها الدنيا باسم الدولة الأموية، وكان حكم الكاهن الخزاعي مدعاة لفرقة وفجوة بين

بيت هاشم وبيت عبد شمس وولده أمية؛ ورثها الأبناء والحفدة؛ حتي فيما بعد قيام الدولة الإسلامية؛ حيث استمر الصراع ممثلاً في الأمويين (نسبة لأمية بن عبد شمس) والعباسيين (نسبة للعباس بن عبدالمطلب بن هاشم الذي ظلت بيده ألوية الشرف؛ من سقاية ورفادة بتصريح من النبي صلي الله عليه وسلم)، أو بين المذهب الشيعي والمذهب السني. ورغم محاولات قريش راب الصدع مبكراً، بعقد حلف الفضول بين الأطراف المتنازعة، فإن الصدع استمر يغور ويتسع - باستمرار وإصرار - بين أبناء العمومة (٧).

هوامش

- ١- ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ١٩٤.
- ٢- برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون إنسان العيون، دار المعرفة، بيروت، دت، ج ١، ص ٢١، ٢٢.
- ٣- نفسه: ص ٢٢.
- ٤- أحمد شلبي: السيرة، ج ١، ص ١٢٧.
- ٥- ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٣٦.
- ٦- الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٢٢.
- ٧- ابن هشام: السيرة، ج ١، ص ١٢٢.

بنو هاشم من التكتيك الى الأيديولوجيا

علي الرغم من أن ألوية السيادة المستقرة في بيت عبد الدار قد كفلت له اختصاصات التحكم والقوة، فإن تكتيك هاشم اتجه منحى آخر تمثل في اكتساب القلوب؛ فقام يهشم الثريد لقومه بيديه - لذلك لقب هاشما - ومد بسخائته القاصي والداني، أما اسمه الحقيقي فكان عمرو، ويقول ابن كثير: «... هاشم وأسمه عمرو، سمي هاشما لهشمه الثريد مع اللحم لقومه في سني المحل، كما قال مطرود بن كعب الخزاعي في قصيدته، وقيل للزبيعي والد عبدالله:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف
سنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصياف

وذلك لأنه أول من سن رحلتي الشتاء والصيف»^(١).

وإذا كان هاشم هو أول من سن رحلتي الشتاء والصيف؛ فلاريب أنه قد فعل ذلك في الوقت الذي بدأت فيه قريش تتحول من مجرد حارس وقابض للعشور، أو مجرد محطة ترانزيت، إلى بلدة تمتكر التجارة لنفسها، وتتاجر في بضائع الأمم بأموالها، (ولنلاحظ أن القرآن الكريم يربط بعد ذلك بين هذا العامل الاقتصادي المتمثل في التجارة - وأثر ذلك في التقرش والاستقرار - والعامل الديني؛ في قوله: «لإيلاف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف» . وحول الفهم نفسه يكتب الدكتور (أحمد شلبي) قوله: «... فأصبحت مكة جمهورية صغيرة تجارية... وراجت تجارة مكة، فأخذت قريش توطد مركزها في البلد الحرام، فسنت.. رحلتي الشتاء والصيف؛ رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام؛ فارتفعت مكانة مكة في الجزيرة، واعتبرت العاصمة المعترف بها، وسمت منزلة سوق عكاظ؛ فأصبح ملتقى الخطباء وقطب الدائرة الفكرية.. وهاشم الجد الثاني للرسول كان سفير قريش لدى الملوك، وقد عقد مع الروم معاهدة تجارية؛ لتذهب تجارة قريش إلى الشام في أمان ومنعة»^(٢).

لكن هاشما أعطي الوضع المتأزم أبعادا جديدة؛ عندما دعم قوي حزبه العسكرية برجال الحرب والدّم والحلقة من بني النجار والخزرج في يثرب؛ فشد الوثاق بهم بأن تزوج سلمي بنت عمرو من بني النجار من الخزرج^(٣)، ليكون ذلك لحزب عبد الدار وعبد شمس إعلانا صريحا عن قيام التحالف بين الحزب الهاشمي وأهل الحرب -اليثاربة، وترك ولده شعبة المعروف بعبد المطلب ينمو ويربو ويرضع القروسية بين أحواله، وحيث كان كل التاريخ الديني يتواتر هناك في مقدسات اليهود.

ويموت هاشم تولي أخوه المطلب منصب السقاية والرفادة والقيادة، «..والمطلب كان يقال له القمر لخصته».. فيما يزعم ابن كثير^(٤) ثم إنه اتبع أسلوب أخيه وسياسته في اجتذاب القلوب بالكرم والعطاء والبذل؛ فنال القاب المحبة والتكريم؛ حتي لقبوه لجوده بالفيض.

ولم يطل العمر بالمطلب سيدا؛ فقد رحل تاركا استكمال المهمة الجليلة لابن أخيه؛ ذاك العبقري الفذ شيبه بن هاشم المعروف بعبد المطلب، الذي تربى صغيرا في كنف أخواله من أهل الحرب البيثارية، ثم تزوج بنت جناب بن كليب الخزرجي شدا للأواصر ومدا للوثاق^(٥) وكان واضحا من البداية فهمه الثاقب لأبعاد الأوضاع في مكة؛ فحرص علي استدامة حلف المطيبين بالزواج من بني زهرة، ومن المهم هنا أن نذكر أنه عند عودته من المدينة إلي مكة ليتبوأ مكان عمه المطلب؛ وجد عمه نوفلا قد وضع يده علي أسلاكه خارجا عن حياته مستهيناً بحدائث سنه، إلا أن عبد المطلب كتب من فوره إلي أخواله بني النجار في يثرب مستنصرا:

أبلغ بني النجار أنني جئتكم أنني منهم وابنهم والخميس
رأيتمهم قسوما إذا جئتكم هووا لقائتي وأحبوا حسييس
فلإن عمي نوفلا قد أبي إلا التي يغض عنها الخسيس^(٦)

وما كاد إيراقة يصل الأخوال حتي قدحت حوافر خيول ثمانين محاربا يثربيا بالبرق؛ يحملون السيوف إلي مكة؛ مما دفع نوفلا إلي التراجع من فوره، ورد أملاك عبد المطلب إليه، لكنه أعلن خروجه علي حياته، وأنحيازه لحزب عبد الدار وعبد شمس، ضد عبد المطلب وحزبه الهاشمي. وهذا ما تشرحه لنا السيرة الحلبية عن المطلب وابن أخيه في قولها: «..وكان شريفا مطاعا جوادا، وكانت قريش تسميه الفياض لكثرة جوده، فلما كبر عبد المطلب فوض إليه أمر السقاية والرفادة، فلما مات المطلب وثب عليه عمه نوفل بن عبد مناف، وغصبه أركاها (أي أفنية ودورا) .. فكتب إلي أخواله بني النجار بالمدينة بما قعله معه عمه نوفل، فلما وقف خاله أبو سعد بن عدي بن النجار علي كتابه بكى، وسار من المدينة في ثمانين راكبا حتي قدم مكة فنزل بالأبطح؛ فتلقاه عبد المطلب وقال له: المنزل يا خال؛ فقال: لا والله حتي ألقي نوفلا؛ فقال: تركته في الحجر جالسا في مشايخ قريش؛ فأقبل أبو سعد حتي وقف عليهم، فقام نوفل قائما وقال: يا أبا سعد أنعم صباحا؛ فقال له أبو سعد: لا أنعم الله لك صباحا، وسل سيفه، وقال: ورب هذه

البنية (الكعبة)؛ لئن لم ترد علي ابن أختي أركاحه، لأملأن منك هذا السيف، فقال: لقد رددتها عليه... ولما جري ذلك حالف نوفل وبينوه بني أخيه عبد شمس علي بني هاشم^(٧).

أما الطبري فيقول: «فلما رأي ذلك نوفل، حالف بني شمس كلها علي بني هاشم، قال محمد بن أبي بكر، فحدث بهذا الحديث موسي بن عيسي، فقال:

يا ابن أبي بكر هذا شيء ترويه الأنصار تقريباً إلينا، إذ صير الله الدولة فينا؛ عيد المطلب كان أعز في قومه من أن يحتاج إلي أن تتركب بنو النجار من المدينة إليه، قلت: أصلح الله الأمير؛ قد احتاج إلي نصرهم من كان خيراً من عيد المطلب، قال: وكان مستكثفاً فجلس مغضباً، وقال: من خير من عيد المطلب؟ قلت: محمد رسول الله - (صلي الله عليه وسلم) - قال: صدقت، وعاد إلي مكانه وقال لبنيه: اكتبوا هذا الحديث عن ابن أبي بكر^(٨).

ويتضح لنا وعي عيد المطلب بن هاشم السياسي، وبعد نظره، وحسه القومي؛ في قيادته وقدأ إلي اليمن برفقة ابن أخيه أمية (قبل النزاع المشار إليه)، وحلفائه: أبو زمعة؛ جد أمية بن عبد الله بن أبي الصلت - وسيكون لأمية هذا شأن - وخويلد الأسدي بن أسد بن عبد العزي (ومن الواجب ملاحظة امتداد ذلك التحالف في زواج حفيد عيد المطلب: النبي محمد صلي الله عليه وسلم، من السيدة خديجة بنت خويلد الأسدي - رضي الله عنها - في الوقت الذي استمر فيه علي التكتيك الهاشمي؛ بأن سار علي السنة الكريمة المعطاء بالجو؛ حتي لقبه الناس : شعبة الحمد^(٩).

لكن الجديد في أمره، هو عمله علي وضع أيديولوجيا متكاملة لتحقيق أهداف حزبه، فكان إدراكه النفاذ لسنة جده قصي الدينية والسياسية مساعداً علي تحديد النداء ووصف الدواء؛ والداء فرقة قبلية عشائرية، والأسباب تعدد الأرباب وتمائيل الشفعاء، ومن هنا انطلق عيد المطلب يضع أسس فهم جديد للاعتقاد؛ فهم يجمع القلوب عند إله واحد، ويتميز بأنه يلغي التماثيل والأصنام وغيرها من الوساطات والشفاعات؛ لأنه لايقبل من أحد وساطة ولا شفاعة إلا العمل الصالح!!

وتمهيدا لما أزمع؛ أعلن في الناس: أنه بينما كان نائما في الحجر بالكعبة أناه رثي، وغتته ثلاث مرات، **وألوحى إليه الأمر بحفر البئر المعروفة باسم زمزم**، وتقول كتب الأخبار الإسلامية، إنها كانت بئراً لجرحهم بين صتمي إساف ونائلة دفنتها حين تركت مكة^(١٠). نعم لقد تمثل تنافس بني العمومة من قبل في احتفار الآبار، جذبا للقبائل وقوافل التجارة، فقيما حفر عيد الدار (أم جراد)، ولما حفر عيد شمس (الطوي)؛ رد عليه هاشم بحفر (بدر)؛ فزاد أمية في الكرم وحفر (الحضر)؛ فرد عليه عبد المطلب بحفر (زمزم)^(١١)، لكن زمزم ليست ككل الآبار؛ فهي البئر الوحيدة التي قيل فيها إنها حفرت بأمر غيبي - في حلم عبد المطلب - إضافة إلى ما شاع يتردد حول أمرها، فهي فعل إلهي لا إنساني، فجرها الله قديما تحت خد إسماعيل بن إبراهيم (عليه السلام)؛ ليشرّب وأمه منها، وفي ذلك يقول ابن هشام في السيرة: «فضل زمزم علي سائر المياه: فعمقت زمزم علي المياه التي كانت قبلها يسقي عليها الحجاج، وانصرف الناس إليها لمكانها في المسجد الحرام، ولفضلها عما سواها من المياه، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام»^(١٢).

ويقدم لنا ابن كثير نص هذا الأمر أو الوحي بحفر زمزم؛ وهو لحفر زمزم، إنك إن حفرتها لن تندم، هي تراث من أبك الأعظم، لاتنزع أبدا ولا تزم، تسقي الحجيج الأعظم، مثل نعام جافل لم يقسم، ينذر فيها نادر بمنعم، تكون ميراثا وعقدا محكما، ليست لبعض ما قد تعلم، وهي بين الفتر والندم^(١٣)

ثم يعقب بالقول: إن عبد المطلب «ساد في قريش سيادة عظيمة، وذهب بشرفهم وراثتهم؛ فكان جماع أمرهم عليه، وكانت إليه السقاية والرفادة بعد المطلب، وهو الذي جدد حفر زمزم بعدما كانت مطمومة من زمن جرحهم، وهو أول من طلي الكعبة بذهب في أبوابها، من تينك الغزالتين اللتين من ذهب، وجدهما في زمزم مع تلك الأسياق القلعية»^(١٤)، ثم يؤكد أن عبد المطلب كان مؤسسا للملة واعتقاده، فيروي عن ابن عباس وابن عمرو ومجاهد والشعبي وقتادة.. (عن ديانة أبي طالب بن عبد المطلب): «هو علي ملة الأشياخ.. هو علي ملة عبيد المطلب»^(١٥).

ويبدو أن أخطر شأن في هذه الملة وفي أمر عبد المطلب جميعه؛ هو إدراكه للنسب وخطورته بين الأعراب؛ بحسيانه العامل الجوهرية في تفككهم السياسي؛ لاعتزاز كل قبيلة بنسبها القبلي، والذي ظل مستبظنا في بطن التحول الجديد للبيئة

الاجتماعية المكية - ومن هنا كان إعلانه أن العرب جميعا وقريش خصوصا، يعودون بجذورهم إلي نسب واحد؛ فهم يرغم تحزبهم وتفرقهم، أبناء لإسماعيل بن إبراهيم، لذلك؛ ولأنه ينتمي إلي هذه السلالة الشريفة؛ فقد أعلن في الناس تبرؤه من أرجاس الجاهلية، وعودته إلي دين جده إبراهيم، ودين إبراهيم. هو الفطرة الحنيفية التي ترفض أي توسط بين العبد والرب، فإذا أهل رمضان صعد إلي غار حراء متحتفا، ثم عاد ينادي قومه أنه قد حرم علي نفسه الخمر^(١٦)، وكل ضروب الفسق؛ حاثا علي مكارم الأخلاق؛ داعيا الناس لاتباعه؛ مؤمنا بالبعث والحساب والخلود؛ هاتفا؛ «والله إن وراء هذه الدار دارا يجزي فيها المحسن بإحسانه، ويعاقب فيها المسيء بسبائاته»!! ثم لا يلبث أن يبشر قومه بقرب قيام الوحدة السياسية، فيشير إلي أبنائه وحفدته الذين أصبحوا له عزوة وشدة أزر، ويقول: «إذا أحب الله إئتشاء دولة، خلق لها أمثال هؤلاء»^(١٧). أولئك الأبناء الذين كاد يقدم أحدهم ذبيحا (ابنه عبد الله أب النبي - عليه السلام) كما كاد يفعل جده البعيد إبراهيم (عليه السلام) مع ولده إسماعيل (عليه السلام).

وفي أمر عبد المطلب يقول المسعودي: «تنازع الناس في عبد المطلب، فمنهم من رأي أنه كان مؤمنا موحدا، وأنه لم يشرك بالله عز وجل... وكان عبد المطلب يوصي بصلة الأرحام وإطعام الطعام ويرغبهم ويرهبهم، فعل من يرأى في المتعقب معانا ويعنا ونشورا»^(١٨)، هذا بينما يتحدث الأستاذ العقاد عن صراع الهاشميين وأبناء عمومته علي الرئاسة، وعن عبد المطلب بوجه خاص فيقول: «وقد تنافس بنو هاشم وبنو أمية علي هذا الشرف، فأسفرت المنافسة بينهم عن فارق ملحوظ في الطباع؛ ملحوظ الأثر في خلائق الأسرتين من أيام الجاهلية إلي ما بعد الإسلام بعدة قرون... لقد كان بنو هاشم أسرة النبي (صلي الله عليه وسلم) أصحاب رئاسة وكانت لهم أخلاق رئاسة... وكان عبد المطلب متدينا صادق اليقين؛ مؤمنا بمحارم دينه... كان في الحق نمطا قريدا بين أصحاب الطوائف التي فطرت علي الاعتقاد ومناقب النبل والإيثار، كانت مناقبه مطلبية تثل عليه ولا تصدر عن غيره، وكانت كلها مزيجا من الأنفة والرصانة والاستقلال... والاعياء التاريخ خلّقاء أن يسألوا أنفسهم هنا سؤالين، لا يغفلهما أحد يفقه معني تحييص الخبر، وأولهما في هذا السياق؛ لماذا اخترع الرواة هذه الأخبار عن عبد المطلب دون غيره؟ وثانيهما؛ لماذا لم يخترعوها ولا اخترعوا أمثالها عن حرب بن أمية؟ وكل ما تفرقت فيه الروايات من أمر عبد المطلب قد استقرت علي صفة لا تفرق فيها روايتان، وهي صدق التدين والإيمان بمحارم الدين»^(١٩).

هذا بينما يقول الحافظ السيوطي: «... إن أجداده (عليهم السلام) من آدم إلى مرة بن كعب مصرح بإيمانهم..» وقد ذكر في عبد المطلب «إنه كان علي ملة إبراهيم (عليه السلام) أي لم يعبد الأصنام..»^(٢٠)، كما جاء عن ابن عباس (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلي الله عليه وسلم): «يبعث جدي عبد المطلب في زى الملوك وأبهة الأشراف...» وكان أبو طالب ممن حرم الخمر علي نفسه في الجاهلية كآبيه عبد المطلب^(٢١).

وليس أدل علي مثل هذه التوجهات بشأن عبد المطلب مما زعمه الإخباريون من اعتقاد العرب في شأنه، كصاحب ملة، وكرجل له نوع ما من العلاقة بالسماء، وفي أنه ثمة رابط بين ذلك وعلمه اليقيني المسبق بأن حفيده: محمد بن عبد الله (صلي الله عليه وسلم) هو نبي الأمة وموحيها المنتظر. فتشير كتب التراث إلي أن قريشا استقت به من السماء بعد جذب أشرفت معه علي الهلاك؛ فصعد بهم ومعه حفيده إلي جبل أبي قبيس ينادي ربه: «اللهم هؤلاء عبيدك وبنو عبيدك وإماؤك وبنو إمائك، وقد نزل بهم ما تري، وتسابعت علينا السنون، فذهبت بالظلف والخف والحافر؛ أي الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير، فأشقت علي الأنفس، أي أشرفت علي ذهابها، فأذهبن عنا الجذب وأثنتا بالحيا والخصب، فما برحوا حتي سيالت الأودية». أما الاعتقاد الثابت لدي هؤلاء فقد كان هو: «له فخر يكظم عليه - أي يسكت عنه ولا يظهره - وسنن يهتدي بها - أي يرشد إليها»، وفي الاستسقاء به قالت رقيقة بنت أبي صيفي شعرها:

بشيبية الحمم أسقي الله بلدتنا وقد عدمتنا الحيا واجلّو المطر^(٢٢).

ولا بأس هنا من إيراد نص يحكي عن علاقة عبد المطلب وسننه بالسماء، واستجابة السماء له؛ يقول:

«ولما سقوا لم يصل المطر إلي بلاد قيس ومضر، فاجتمع عظماءهم (وذهبوا إليه يقولون): قد أصابتنا سنون مجذبات، وقد بان لنا أثرك وصح عندنا خبرك، فاشفع لنا عند من شفّعك، وأجري الغمام لك، فقال عبد المطلب: سمعنا وطاعة... ثم قال: اللهم رب البرق الخاطف، والرعد القاصف، رب الأرياب، وملين الصعاب، هذه قيس ومضر، من خير البشر، قد شعّث رؤوسها، وحديث ظهورها،

تشكو إليك شدة الهزال، وذهاب الناس والأموال، اللهم
فافتح لهم سحاباً خواراً، وسماء خراباً، لتضحك أرضهم،
ويزول ضرهم. فما استتم كلامه حتى نشأت سحابة
سوداء دكناء، لها دوي وقصدت نحو عبد المطلب، ثم
قصدت نحو بلادهم؛ فقال عبد المطلب: يا معشر قيس
ومضر أنصرفوا فقد سقيتم، فرجعوا وقد سقوا» (٢٣).

أما ما جاء عن فخر له يكظم عليه ولا يظهره؛ فقد وضح في الحديث المتواتر في
كتب السير عن اللقاء السري الذي تم بينه وبين سيف بن ذي يزن؛ عندما قام وقد
قريش لتهنئته باستقلال بلاده عن الحبشة. وبهذا الشأن يورد ابن عبد ربه ما زعم أنه
دار في هذا اللقاء، في حديث مسجوع الفواصل؛ فقال سيف لعبد المطلب:

«إني مفوض إليك من سر علمي أمراً غيرك كان لم أبح له به،
ولكني رأيتك موضعه فأطلعته عليه، فليكن مصونا حتي
يأذن الله فيه، فإن الله بالغ أمره، فإني أجد في العلم للآخرين،
والكتاب المكنون الذي ادخرناه لأنفسنا، واحتجبتاه دون غيرنا،
خيراً عظيماً، وخطراً جسيماً، فيه شرف الحياة، ومفضيلة
الوفاة، للناس كافة، ولرهلك عامة، وينفك خاصة... إذا ولد
مولود بتهامة، بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة، إلي يوم
القيامة... هذا حينه الذي يولد فيه، يموت أبوه وأمه، ويكفله
جده وعمه، وقد وجدناه مراراً، والله باعته جهاراً، وجاعل له
منا أنصاراً (المقصود هنا أهل يثرب فهم من أصل يمني)، يعز
بهم أوليائه، ويذل بهم أعداءه، ويفتح كرائم الأرض، ويضرب
بهم الناس عن عرض، يخمد النيران، ويكسر الأوثان، ويعبد
الرحمن، قوله حكم وفصل، وأمره حزم وعبدل، يأمر
بالمعروف ويفعله، وينهي عن المنكر ويبطله... والبيت ذي
الطنب، والعلامات والنصب، إنك يا عبد المطلب، لجده من غير
كذب، فخر عبد المطلب ساجداً... قال ابن ذي يزن: .. أطوما
ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك؛ فإني لست أمان أن
تدخلهم النفاسة، في أن تكون لكم الرياسة، فيبغضون له
الغوائل، وينصبون له الحياثل، وهم فاعلون وأبناؤهم».

ويرد ابن عبد ربه القول: إن ابن ذي يزن «أمر لكل منهم بعشرة أعبد، وعشر إماء سود، وخمسة أوطال فضة، وحلتين من حلل اليمن، وكرش مملوءة عنبرا، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، فكان عبد المطلب بن هاشم يقول: يا معشر قريش لا يغيبني رجل منكم بجزيل عطاء الملك؛ فإنه إلي نفاذ، ولكن يغيبني مما يبغي لي ذكره وفخره لعقبتي؛ فإذا قالوا له: وما ذاك؟ قال: سيظهر بعد حين» (٢٤).

وعن اليقين يعلم عبد المطلب بأمر حفيده؛ يتحدث كتبة التراث مسلمين بالأمر، ثم يقصون أقاصيص تعبر عن هذا التسليم وذاك اليقين؛ فيذكرون عن ولده العباس (رضي الله عنه) قوله: «قال عبد المطلب: قدمت من اليمن في رحلة الشتاء، فنزلنا علي حبر من اليهود يقرأ الزبور، فقال: من الرجل؟ قلت: من قريش، قال: من أيهم؟ قلت: من بني هاشم، قال: أأذن لي أن أنظر إلي بعضك، قلت نعم ما لم يكن عورة، قال: ففتح إحدي منخري فنظر فيها ثم نظر في الأخرى، فقال: أنا أشهد أن في إحدي يديك ملكا وفي الأخرى نبوة، وإنما نجد ذلك (أي كلا الملك والنبوة) في بني زهرة، فكيف ذاك؟ قلت لا أدري... فقال: إذا تزوجت فتزوج منهم. فلما رجع عبد المطلب إلي مكة تزوج هالة بنت وهيب بن عبد مناف! فولدت له حمزة وصفيّة، وزوج ابنة عبد الله أمنة بنت وهب أخي وهيب فولدت له رسول الله (صلي الله عليه وسلم) فكانت قريش تقول، فلح عبد الله علي أبيه، أي فاز وظفر... ثم رأيت في أسد الغابة... أن عبد المطلب تزوج هو وعبد الله في مجلس واحد... وجاز أن يكون الملك والنبوة اللذان تكلم عنهما الحبر، هما نبوته وملكه (صلي الله عليه وسلم) لأنه أعطيهما» (٢٥).

وعليه فإن هذا الخبر - سواء حل محل الصدق أو عدمه - يشير إلي علم عبد المطلب بل سعيه لتحقيقه وإتجابه، وثمة شاهد آخر يتفق عليه الرواة، ويقول عنه البيهقي: «كان يوضع لعبد المطلب جد رسول الله (صلي الله عليه وسلم) فراش في ظل الكعبة؛ فكان لا يجلس عليه أحد من بني إجلال له؛ وكان رسول الله (صلي الله عليه وسلم) - يأتي حتي يجلس عليه؛ فيذهب أعمامه يؤخروته؛ فيقول جده عبد المطلب: دعوا ابني، فيمسح علي ظهره ويقول: إن لبني هذا لشأنا» (٢٦)، أو بتعبير السيرة الحلبية «... دعوا ابني إنه ليؤنس ملكا»، أو قولها «... دعوا ابني يجلس عليه فإنه يحس في نفسه بشرف، أي يتيقن من نفسه شرفا، وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربي قبله ولا بعده» (٢٧). أو بتعبير ابن كثير «... دعوا ابني؛ فوالله إن له لشأنا... دعوا ابني إنه ليؤنس ملكا» (٢٨). ثم كان يشتد وجد الجد بالحفيد؛ «... فقال

عبد المطلب لبنيه: تحفظوا بابن أخيكم، أو قوله لأم أيمن حاضنته: «يا بركة.. لاتغفلي عن ابني؛ فإن أهل الكتاب - أي ومنهم سيف بن ذي يزن - يزعمون أنه نبي هذه الأمة، وأنا لا آمن عليه منهم»^(٢٩)، ويروي البيهقي: «فكان عبد المطلب فيما يزعمون يوصي أبا طالب برسول الله (صلي الله عليه وسلم)، وذلك أن عبد الله وأبا طالب لأم، فقال عبد المطلب فيما يزعمون: فيما يوصي به - واسم أبي طالب عبد مناف:

أوصيك يا عبد مناف بعدي بموحد بعد أبيه فرد
فسارقه وهو ضجيع المهد فكنت كالأم له في الوجد
إن الفتى سيد أهل نجد يعلو علي ذي البدن الأشد^(٣٠)

وبما أن لكل مجتهد نصيبا؛ فقد أتت مساعي عبد المطلب وجهوده التي لم تكل بثمارها، واتبعه كثيرون علي ملته الإبراهيمية وعقيدته الحنفية، التي لم يستنكف المؤرخون والباحثون من نعتها بـ «دين عبد المطلب»^(٣١)، ومن هؤلاء التابعين (وفيهم السابقون المهدون): قس بن ساعدة الإيادي، وأمّية بن أبي الصلت، وأرباب ابن رثاب، وسويد بن عامر المصطلق، وكيع بن سلمة بن زهير الإيادي، وعمير بن جندب الجهني، وأبو قيس صرمة بن أبي أنس، وعامر بن الطرب العدواني، وعلاف بن شهاب التميمي، والمتلمس بن أمّية الكناني، وزهير بن أبي سلمى، وخالد ابن سنان بن غيث العيسى، وعبد الله القضاعي، وكعب بن لؤي بن غالب، وعبد لطابخة بن ثعلب، وزيد الفوارس بن حصين، وزيد بن عمرو بن نفيل^(٣٢)، وأكثم ابن صيفي، وأبو قيس بن الأسلت، وحنظلة بن صفوان، وغيرهم كثير، وبانتشار الأيديولوجيا الحنفية بدأ أتباعها يتنافسون في التقوي والتسامي الخلقي؛ علّ أحدهم يكون نبي الأمة وموحد كلمتها، حتي شكلوا «تيارا قويا، خاصة قبل ظهور الإسلام بفترة وجيزة»^(٣٣).

- ١- ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٣٦.
- ٢- أحمد شلبي: السيرة، ج ١، ص ١٤٦ و ١٨٣.
- ٣- ابن هشام: في كتاب الروض للسيهلي، ج ١، ص ١٣٠.
- ٤- ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٣٧.
- ٥- ابن هشام: في كتاب الروض للسيهلي، ج ١، ص ١٣١.
- ٦- الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٢٤٨ و ٢٤٩.
- ٧- الحلبي: السيرة، ج ١، ص ٢٢ و ٢٣.
- ٨- الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٢٤٩.
- ٩- ابن «سيد الناس» عيون الأثر في فنون المغازي والشعائل والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، بيروت ج ١، ص ٢٩.
- ١٠- ابن هشام: السيرة، ج ١، ص ١٠١.
- ١١- نفسه: ص ١٣٦؛ ١٣٩.
- ١٢- نفسه: ص ١٣٩.
- ١٣- ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٢٨.
- ١٤- نفسه: ص ٢٣٦.
- ١٥- نفسه: ج ٣، ص ١٢٢.
- ١٦- أبو جعفر محمد بن حبيب: المحبر، دار الأفاق الجديدة، بيروت، دت، ص ٢٣٧.
- ١٧- ابتكار السقايف: نحو أفاق أوسع، الأنجلو المصرية، القاهرة، دت، ج ٢، ص ١٢٤٤، ١٢٤٥.
- ١٨- المسعودي: مروج الذهب، ج ١، ص ١٣١، ١٣٢.
- ١٩- العقاد: طوائف التبعة، ص ١٤٠ و ١٤٢ و ١٤٤ و ١٤٨.
- ٢٠- الحلبي: السيرة، ج ١، ص ٧٠.
- ٢١- نفسه: ج ١، ص ١٨٤.
- ٢٢- نفسه: ج ١، ص ١٨١، ١٨٢.

- ٢٣- نفسه: ج ١، ص ١٨٢ و ١٨٣.
- ٢٤- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ١، ص ٢٩١: ٢٩٢. وانظر أيضا المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ٨٢ و ٨٤.
- ٢٥- الحلبي: السيرة، ج ١، ص ٧٠ و ٧٢.
- ٢٦- أبو بكر البيهقي: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، توثيق د. عبد المعطي قلعجي، دار الريان للتراث، القاهرة ط ١، ١٩٨٨، ج ٢، ص ٢٢.
- ٢٧- الحلبي: السيرة، ج ١، ص ١٧٧.
- ٢٨- ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٢٦١.
- ٢٩- الحلبي: السيرة، ج ١، ص ١٨٠.
- ٣٠- البيهقي: دلائل النبوة، ج ٢، ص ٢٢.
- ٣١- د. أحمد جمال العمري: الشعراء الحنفاء، دار المعارف، القاهرة، ط ١، ١٩٨١، ص ١٠٣.
- ٣٢- نفسه: ص ٨٦.
- ٣٣- شربا منقوش: التوحيديمان، التوحيد في تطوره التاريخي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٧، ص ١٥٩.

جذور الأيديولوجيا الحنفية

يبدو أن التوحيد بمعناه الحنفي يعود إلى زمن بعيد، فحوالي القرن الأول قبل الميلاد كان بعض أهل اليمن يعبدون إلها باسم (نوي سموي) أو إله السماء، كإله واحد، وقد ذكرت نقوش المسند اليمنية عبادة إله واحد يدعى (رحمن)، ويرى الباحثون أنهما كانا مسميين لواحد، وتؤكد (ثريا منقوش): «أن عبادة هذا الإله كانوا يعرفون بالأحناف»^(١). ويذهب (الدكتور جواد علي) إلى افتراض أن تكون عقيدة حنفاء مكة التي نادى بها عبد المطلب بن هاشم، بعد سبعة قرون؛ امتدادا لحنيفية رحمن اليمن؛ رب السماء نوي سموي، ويلمح إلى ذلك في قوله عن أحناف مكة: «لأنستطيع أن نقول إنهم نصاري أو يهود، إنما أستطيع أن أشبه دعوة هؤلاء بدعوة الذين دعوا إلى عبادة الإله رب السماء نوي سموي، أو عبادة الرحمن في اليمن»^(٢).

ويذكر الفخر الرازي أن عقيدة أحناف اليمن، كانت أركاناً أربعة هي: حج البيت، واتباع الحق، وملة إبراهيم، والإخلاص لله وحده. ثم يضيف قوله: إن عدم معرفة هؤلاء لتاريخ نشوء عقيدتهم؛ فقد نسبوها إلى إبراهيم النبي العبري!! (لنا في جذور هذا الأمر بحث خاص، ألقينا فيه الضوء على مساحات مظلمة في تاريخ هذه العقيدة، بعنوان: النبي إبراهيم والتاريخ المجهول).

ويذهب الألوسي إلى أن الصابئة هم قوم النبي إبراهيم (عليه السلام) وأهل دعوته^(٣)؛ مما دفع بعض العلماء إلى حساب الحنفاء صنفاً من الصابئة، وبالتحديد - الصنف المؤمن أو من بقي علي الإيمان منهم^(٤)، وكان منهم بالجزيرة العربية نفر غير قليل، وكانوا يقيمون الصلاة عدة مرات في اليوم كفرض إجباري للإيمان، يقومون فيها ويركعون، ويتوضؤون قبلها، ويفتسلون من الجنابة، ولهم قواعد في نواقض الوضوء^(٥). (ولعل ذلك يفسر لنا لماذا أطلق أهل مكة علي من يتبع دعوة الإسلام ويشاهدونه يؤدي هذا الشكل من الصلوات: أنه قد صبا)!!

ولا بأس هنا من التعريف السريع بأهم حنفاء الجزيرة، أو من شاء حظهم أن يذكرهم التاريخ ولو بكلمات، ومنهم - كما أشرنا - قس بن ساعدة الإيادي، الذي يكاد يجمع المؤرخون علي موته قبل البعثة بقليل، وقد ورد أن النبي (صلي الله عليه وسلم) كان يسمع إليه في سوق عكاظ. ونقل الألوسي بعض ما نسب إلى قس فقال: «ومن خطباء إياد قس بن ساعدة، وهو الذي قال فيه النبي (صلي الله عليه وسلم) لجارود: يا جارود، فليست أشباه بسوق عكاظ علي جمل أورق، وهو يتكلم بكلام ما أظن أني حفظته، فقال أبو بكر: يا رسول الله فإني أحفظه، كنت حاضرًا ذلك اليوم، فقال في خطبته: أيها الناس؛ اسمعوا وعوا؛ فإذا وعيتم فانتفعوا، إنه من

عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو أت، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، جهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تصور، ويحار لن تغور، ليل داج، وسماء ذات أبراج، أقسم قس قسما حتما، لئن كان في الأرض رضي ليكون بعده سخطا، وإن لله دينا هو أحب إليه من دينكم»^(٦)، ثم يعلن توحيده الخالص النقي؛ متاديا «كلا، بل هو الله المعبود الواحد، ليس بمولود ولا والد، أعاد وأبدى، وإليه المآب غدا»^(٧) ثم يرسل شعره قائلا:

ففي الزاهبين الأولين في الشعوب لنا بصائر
لما رأيت مساوذا للموت ليس لهامصادر
ورأيت قومى نحوها تسمى الأصاغر والأكابر
لا يرجعن قومى إلي ولا من الباقين غاير
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر^(٨)

ويقول أيضا:

يا ناعي الموت والأموات في جدث عليهم من بقايا برعم خرق
دعهم فإن لهم يوما يصاح بهم فهم إذا انتبهوا من نومهم فرقوا
حتي يعودوا لحال غير حالهم خلقا جديدا كما من قبله خلقوا
فيهم عراة ومنهم في ثيابهم منها الجديد ومنها المبهج الخلق
حتي قال رسول الله (صلي الله عليه وسلم) «والذي بعثني بالحق، لقد آمن قس بالبعث»^(٩).

ومن الحنفاء (سويد بن عامر المصطلق). ذكرت المصادر أنه كان علي دين الحنيفية وملة إبراهيم، وقد جاء في شعره ذكر المنايا وحتمها، وأن الخير والشر مكتوبان علي النواصي، وأنه ليس للمرء يد فيما يصيبه من القدر، فكل شيء محتوم مقدور. قال مسلم الخزاعي المصطلق: «شهدت رسول الله «صلي الله عليه وسلم» وقد أنشده منشد قول سويد بن عامر المصطلق:

لا تأمنن وإن أمسيت في حرم حتي تلاقي ما يعني لك الماني
فالخير والشر مقرونان في قرن بكل ذلك يأتيك الجسديدان

فكل ذي صاحب يوما يفارقه وكل زاد وإن أبقيته فإن
فقال رسول الله (صلي الله عليه وسلم): لو أدرى كته لأسلم^(١٠).

ومنهم أيضا - قبل عبد المطلب - (أو كيع بن سلمة بن زهير الإيادي) ، الذي بني
صرحا بأسفل مكة جعل فيه أمة يقال لها حزورة، وبها سميت حزورة مكة، جعل
فيه سلما يرقاه، زاعما أن الله يتاجبه فيه، وكان يتكلم بالخير، وزعم العرب أنه
صديق من الصديقين^(١١)، وهو بهذا المعنى رجل مثاله مدعي الوحي مستنبيء،
وذكروا عنه كلمات مسجوعة مثل: «إن ربكم ليخزين بالخير ثوابا، وبالشّر عقابا،
وإن من في الأرض عبيد لمن في السماء، هلك جرهم وزيلت إباد، وكذلك الصلاح
والفساد»، أو مثل «من رشد فاتبعوه، ومن غوي فارقضوه، وكل شاة برجلها
معلقة»^(١٢).

ومنهم أيضا (أبو قيس صرمة بن أبي أنيس)، وهو من بني النجار أهل يثرب؛
أنشأ البيت الهاشمي، وتقول الأخبار إنه فارق الأوثان واغتسل من الجنابة، وتطهر،
ودخل بيتا له اتخذ مسجدا لا تدخله طامث ولا يدخله جنب، وقال أعبد رب إبراهيم،
وكان قوالا بالحق، معظما لله، وقال ابن حجر: إنه لما قدم النبي (صلي الله عليه
وسلم) إلي يثرب، أسلم وحسن إسلامه، وهو شيخ عجوز، وكان ابن عباس يختلف
إليه ويأخذ عنه الشعر^(١٣)، ومن هذا الشعر قوله:

فو الله ما يدري الفتى كيف يتقي إذا هو لم يجعل له الله واقيا
ولاتحفل النخل المعيمة ربا إذا أصبحت ربا وأصبح ثاويا
وقوله:

يا بني الأيام لا تأمنوها واحذروا مسكرها ومر الليالي
واعلموا أن مرها لنفاد الخلق ما كان من جديد وبالي
وقوله:

سبحوا الله شرق كل صباح طلعت شمسسه وكل هلال
عالم السر والبيان لدينا ليس ما قال رينا بضلال^(١٤)

ومنهم أيضا ورقة بن نوفل الذي قال عنه الألويسي أنه ممن وحد الله، وترك الأوثان
وسائر أنواع الشرك، واجتهد في طلب الحنيفية دين إبراهيم، ثم تنصر، لكنه لم

يتبع النصراري في التبديل، وظل موحداً^(١٥) وقد سأل رسول الله (صلي الله عليه وسلم) عن ورقة فقالت له خديجة (رضي الله عنها): إنه كان صدقك وإنه مات قبل أن تظهر؛ فقال رسول الله (صلي الله عليه وسلم): رأيت في المنام وعليه ثياب بيض، ولو كان من أهل النار لكان عليه لباس غير ذلك^(١٦).

وقس هو الذي كان ينادي الناس ناصحاً:

لا تعبدون إلها غير خالقكم فإن دعوكم فقولوا بيننا حد
سبحان ذي العرش سبحانا نعوذ به وقبل قد سبى الجودي والجمد
مسخر كل ما تحت السماء له لا ينبغي أن يناوي ملكه أحد
لا شيء مما نرى تبقى بشاشته يبقى الإله ويودي المال والولد
وهو الذي قال في (زيد بن عمرو بن نفيل) رفيقه علي درب الحنيفية بعد موته:

رشدت وأعمت بن عمرو وإنما تجذبت تنوراً من النار حاميا
بدنيك ربا ليس رب كمثله وترك أوشان الطواغي كما هيا
وإدراكك الدين الذي قد طلبته ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت في دار كريم مقامها تعمل فيها بالكرامة لاهيا
تلاقي خليل الله فيها ولم تكن من الناس جبارا إلي النار هاويا
وقد تدرك الإنسان رحمة ربه ولو كان تحت الأرض سبعين واديا^(١٧)

ومتهم (عامر بن الخطرب العدواني)، وكان من حكماء العرب وخطبائهم، وكانت له نظرات وأراء في العقيدة؛ تتضح في قوله في وصية طويلة منها: «إني ما رأيت شيئا قط خلق نفسه، ولا رأيت موضوعا إلا مصنوعا، ولا جاثيا إلا ذاهبا، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء.. إني أرى أمورا شتتي وحتى (قيل له: وما حتى؟) قال: حتى يرجع الميت حيا، ويعود اللاشيء شيئا..»^(١٨)، وقالوا عنه: إن إيمانه بملة إبراهيم، دعه إلي تحريم الخمر علي نفسه^(١٩)، وفي ذلك يقول:

أن أشرب الخمر للذتها وأن أدعها فإني ماقت قال
لولا اللذائة والفتيان لم أرها ولا رأيتني إلا من مدي الغال
سئالة للفتي ما ليس يملكه ذهابة بعقول القوم والمال

مورثة القوم أضفانا بلا إهن مزرية بالفتي ذي النجدة العال
 أقسمت بالله أسقيها وأشريها حتي يفرق ترب القبر أوصالي (٢٠)
 ومنهم علاف بن شهاب التميمي الذي أمن بوحدانية الله وبالبعث والنشور
 والحساب والثواب والعقاب، وهو القائل:

ولقد شهدت الخصم يوم رقاعة فأخذت منه خطة المغتال
 وعلمت أن اللسه جاز عبده يوم الحساب بأحسن الأعمال (٢١)
 ومنهم (التملمس بن أمية الكنانى) الذي كان يخطب في فناء الكعبة مناديا ينبذ
 الفرقة القبلية عن سبيل نبذ الأوثان، والاتجاه إلي رب كعبة مكة، وكان يقول لهم:
 «إنكم تفردتم بالله شتى، وإنى لأعلم ما الله راض به، وإن الله رب هذه الآلهة، وإنه
 ليحب أن يعبد وحده» (٢٢).

ومن الحنفاء أيضا من حاز بعض الشهرة، مثل (زهير بن أبي سلمى)، وذكر أنه
 كان يتأله ويؤمن بالبعث والحساب، ويروي أنه كان يمر بالعضة قد أورقت بعد يبس
 فيقول: «لولا أن تسبني العرب، لأمنت أن الذي أحياك بعد يبس مسيحيي العظام
 وهي رميم»، وقد سلكه ابن حبيب ضمن من حرموا علي أنفسهم الخمر والسكر
 والأزلام (٢٣)، وهو القائل مقسما بالكعبة:

أقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجهرهم
 يمينا لنعم السيدان وجدتما علي كل حال من سحيل ومبرم (٢٤)
 وهو القائل:

ومهما تكن عند امرئ من خليفة ولو خالها تخفي علي الناس تعلم
 ومن هاب أسباب المنية يلقيها ولو رام أسباب السماء يسلم (٢٥)

ثم هو يحدد موقفه واضحا من لعنة الدم في حلف الأحلاف المتناوئة للمطيبين في
 قوله:

ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة وذبيان، هل أقسمتم كل مقسم
 فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفي، ومهما يكتم الله يعلم (٢٦)

ثم يقول مؤمنا:

الا لبيت شعري هل يري الناس ما أري من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا
بدا لسي أن الله حق فزادني إلى الحق تقوي الله ما كان باديا(٢٧)

إن الفكر السليم ليعزو انتشار الحنيفية في الجزيرة والحجاز؛ إلى تمهيد هؤلاء وتوطئتهم، حتي تحولت إلى تيار قوي قبل الإسلام، وإن أهم رجالات الحنيفية وأساذنتها - وربما كان أولهم من حيث الأهمية والأثر - هو (عبد المطلب بن هاشم)، إضافة إلى اثنين من تلامذة الحنيفية الكبار هما: (زيد بن عمرو بن نفيل بن حبيب)، ذاك الذي استطاع جده إقناع الفيل محمود بالعودة إلى اليمن راشداً، وكان حليفاً لعبد المطلب، والثاني (أمية بن عبد الله بن أبي الصلت)؛ وكان جده حليفاً بدوره لعبد المطلب، ورفيقه في رحلته لتهنئة ابن ذي يزن باستقلال اليمن.

ويؤكد الدكتور جواد علي أن أهم العلامات الفارقة التي ميزت الحنفاء عن غيرهم، هي: الاختتان - وحج مكة، والافتسال من الجنازة، واعتزال الأوثان، والإيمان بالله وأحد بيده الخير والشر، وأن كل ما في الكون محتوم مكتوب(٢٨)، وفي مثل الشهرستاني نجد أن الحنفاء كانت تقول: «إننا نحتاج في المعرفة والطاعة إلى متوسط من جنس البشر؛ تكون درجته في الطهارة والعصمة والتأييد والحكمة فوق الروحانية، ويلقي إلى نوع الإنسان بطرف البشرية»(٢٩).

إنن هي النبوة! ولابد للأحناف من نبي!!

وهنا يقول لنا الدكتور أحمد الشريف: «والدليل علي أن الجاهليين كانوا يتطلعون إلى نظام جديد؛ أنهم كانوا - حسب تفكيرهم - يتحدثون عن علامات ونذر تنبيء عن قرب ظهور نبي منهم، وقد روي القدماء معجزات ونذراً قالوا إنها وقعت قبل ظهور الإسلام؛ إرهاباً به ومنبئة بقرب ظهوره، وتلك الروايات - إن صحت - كانت دليلاً علي أن الجاهليين تطلعون إلى الإصلاح، وإلى ظهور مصلح من بينهم، وكان الإصلاح قديماً لا يأتي إلا علي أيدي الحكماء والأنبياء، وهذا التطلع الطبيعي في كل جماعة إحساس ضروري يسبق كل حركة إصلاحية ويمهد لها.. وكانت البيئة مستعدة لقبول النظام الجديد؛ لأنها بيئة لها وحدتها المتميزة؛ من الناحية اللغوية، ومن ناحية الجنس.. وكان من المتوقع لو لم يظهر الإسلام أن يدخل العرب في أحد الدينين، لولا أنهم بدأوا نهضة قومية.. لذلك يريدون ديانة خاصة يعتبرونها رمزاً لقوميتهم.. ديانة تعبر عن روح العروبة وتكون عنواناً لها، لذلك؛ بحث عقلاؤهم عن الحنيفية دين إبراهيم الذي كانوا يعدونه أباً لهم.. وقد ظهرت حركة التحنف قبل

الإسلام مباشرة، وكانت رمزاً إلي أن الروح العربي كان يتلمس يومئذ ديناً آخر غير الوثنية، والإسلام حين جاء.. كان دليلاً على **نضوج ديني فلسفي**، استعد له العرب في القرون المتطاولة السابقة.. وكذلك كانوا يحسون بأن عدم وجود دولة تجمعهم أمر فيه ذلة وعار.. في هذه الظروف المواتية من الناحية الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية؛ ظهرت النهضة العربية؛ وكانت دينية؛ والدين كان عاملاً من عوامل التطوير والتقدم في العصور القديمة، ولم يتنازل الدين بعض الشيء عن هذه الناحية إلا بانتشار العلوم، ووجود العوامل التي تنافسه في القيام بهذا الدور في العصر الحديث» (٣٠).

المهم؛ أنه عندما وصل الحنفية إلي النتيجة المحتومة، بدأت مبارزة تتسم بسمو الروح الرياضية وراقيها؛ فأخذوا يتنافسون في الترفع عن صغائر الأفعال، وهذه الأفعال التي تعفوا عنها هي التي أصبحت فيما بعد أفعالاً شريرة، ويجب تجنبها في نظر الناس، أما عندما جاء الإسلام فقد أوجب تحريمها، ومن هؤلاء الرواد الذين لا ينبغي أن يتخطاهم البحث المحايد، من يصح الوقوف معهم رويداً.

الوقف الأولي: مع (زيد بن عمرو بن نفيل): الذي تعود أرومته إلي قصي بن كلاب، وأمه هي أمية بنت عبد المطلب!! ويعد ثاني الرواد الحنفيين أثراً وأكثرهم خطراً بعد عبد المطلب بن هاشم، وعنه يقول ابن كثير: «إنه اعتزل الأوثان، وفارق الأديان؛ من اليهود والنصارى والمثل كلها، إلا دين الحنيفية، دين إبراهيم، يوحد الله ويخلع من دونه.. وذكر شأنه للنبي (صلي الله عليه وسلم) فقال: هو أمة وحده يوم القيامة.. يبعث يوم القيامة أمة وحده.. وكان يحيي الموءودة؛ يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها، أنا أكفيك مؤنتها فيأخذها.. وكان يقول: يا معشر قريش إياكم والزنا، فإنه يورث الفقر.. فقال رسول الله (صلي الله عليه وسلم) يحشر ذلك أمة وحده، بيني وبين عيسى ابن مريم - إسناده جيد - وأني عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد إلي رسول الله (صلي الله عليه وسلم) فسأله عن زيد بن عمرو بن نفيل؛ فقال غفر الله له ورحمه، فإنه مات علي دين إبراهيم.. مات زيد بمكة، ودفن بأصل حراء.. قال رسول الله (صلي الله عليه وسلم) دخلت الجنة قرايت لزيد بن عمرو بن نفيل ودحتين» (٣١).

ويقول البيهقي في دلائل النبوة: إنه التقى برجل من أهل الكتاب فقال له عليك بالدين الحنيف؛ قال: دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً، ومن ثم عاد مؤمناً بدين إبراهيم وحنيفته الإسلامية» (٣٢). ولكلام البيهقي

هنا مصداقية خاصة يدلل عليها شعر زيد ذاته الذي أقصحه فيه عن «إعلان حنيفيته تحت اسم الإسلام، وعندما تتبأ المصطفى محمد (صلي الله عليه وسلم)، كان يترحم علي زيد ويقول: «قد رأيته في الجنة يسحب ذبولا» (٣٢). وعرف عنه الجاهليون دأبه الذي لا يكل ولا يمل؛ متنقلا دوما، يدور لنيند الأسلاف المتفرقة في أرباب شفيعة، والعودة إلي أب واحد يجمع العرب هو إسماعيل بن إبراهيم، وإلي رب واحد هو رب إبراهيم؛ مباشرة ومن دون وسيط، نبذا للفرقة القبلية، ونهيئة للوحدة، ثم لا يأتي شهر رمضان إلا ويصعد إلي غار حراء متحنفا متحنفا معتكفا يتأمل ويتعبد (٣٤).

وفي (البداية والنهاية)، يطالعنا زيد بشعره قائلا:

أسلمت؟!

أسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرا ثقالا

دحاها فلما رأها استوت علي الماء، أرسى عليها الجبالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل مذبذبا زلالا

إذا هي سيقنت إلي بلدة أطاعت قصبت عليها سجالا (٣٥)

(وليلحظ قارئنا أننا نستند هنا في أمر هذا الشعر إلي مصادره الأصلية، إضافة إلي العودة إلي حل مسألة الانتحال فيه، والأخذ بما انتهى الباحثون لتأكيد غير منحول، فهي مهمة لها رجالها المتخصصون، وإليهم مرجعنا في الأمر، وينسحب ذلك علي كل ما أورده من أشعار الحنفاء) (٣٦).

وفي (السيرة النبوية) لابن هشام؛ نجد زيدا إذا دخل الكعبة قال: «اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك لعبدتك به، ولكنني لا أعلمه، ثم يسجد علي الأرض» (٣٧). ويؤكد (ابن هشام) أنه حرم علي نفسه أمورا... نقلها الناس عنه من بعد كتشريعات؛ لانبهارهم بشدة ورعه وعلمه وتقواه... مثل: تحريم الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله من ذبائح تذبح علي النصب (٣٨). نعم؛ لقد أصبحت هذه تشريعات لجرد امتناع زيد عنها، وربما كان امتناعه عن بعضها لا لعب فيها، وإنما لأنه كان لا يسيغها، ومع ذلك كان لإعجاب الناس به دور كبير في تحولها إلي قوانين متعالية.

وتروي لنا الأخبار أن زيدا قد عاصر النبي محمد (صلي الله عليه وسلم)، وأنه

التقاء؛ عن عبد الله بن عمر: أن النبي (صلي الله عليه وسلم) لقي زيدا بأسفل بلدح، فدعاه إلي تناول طعام مما يذبح للأرياب، فقال زيد للنبي: «إني لست أكل ما تذبحون علي أنصابكم»؟ ويعلل ابن هشام أكل النبي قبل بعثته ذبيها، لأضحيات أو قرابين الأصنام بقوله: «إن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) كان يأكل مما ذبح علي النصب، فإنما فعل أمرا مباحا، وإن كان لا يأكل فلا إشكال»!! (٣٩) ويورد لزيد شعره القائل في فراق الوثنية:

أرى ساء واحسدا أم ألف رب دين إذا تقسمت الأمسور
عزلت اللات والعزى جميعا كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمي بن عمرو أזור
ولكن أعبد الرحمن ربي ليغفر ذنبي الرب الغفور
فتقوي الله ربكم احفظوها متي تحفظوها لاتبـوروا
تسري الأبرار دارهم جنان وللکفار حامية السعير
وخزي في الحياة وإن يموتوا يلاقوا ما تضيق به الصدور (٤٠)

وقال حجير بن أبي إهاب: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل، وأنا عند صنم بؤنة - بعدما رجع من الشام - وهو يراقب الشمس، فإذا زالت استقبل الكعبة، فصلي ركعة وسجدتين ثم يقول: هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل، لا أعبد حجرا ولا أصلي إلا إلي هذا البيت حتي أموت، وكان يحج فيقف بعرفة، وكان يلبي فيقول: لبيك لأشريك لك، ولا ند لك، ثم يدفع من عرفة ماشيا وهو يقول: لبيك متعبدا لك مرقوقا (٤١).

وقالت أسماء بنت أبي بكر: «رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما؛ مسندا ظهره إلي الكعبة، يقول: يامعشر قريش، ما منكم أحد علي دين إبراهيم غيري، وكان إذا خلص إلي البيت استقبله ثم قال: لبيك حقا حقا، تعبدا ورقا، البر أرجو لا الخال، وهل مهجر كمن قال، ثم قال:

عذت بما عاذ به إبراهيم مستقبل الكعبة وهو قائم
يقول أنفي لك عان راغم مهما تجشمني فإنني جاشم (٤٢)

ويقول أيضا:

إلـي الله أهدي مدحي وثنائيا وقولا رصينا لايني الدهر باقيا

إلي الملك الأعلي الذي ليس فوقه إله ولا رب يكون مدانييا
رضيت بك اللهم ربا فلن أري أدين إلها غير الله ثانيا(٤٣)

**الوقف الثانية: مع (أمية بن عبد الله بن أبي الصلت) : الذي تصله أمه رقية بنت
عبد شمس بن عبد مناف ببيت عبد مناف بن قصي(٤٤) وهو صاحب القول المأثور:**
كل دين يوم القيامة - إلا دين الحنيفية - زور!!

وكان يحاور أبا سفيان ويقول له: «.. والله يا أبا سفيان، لنبعثن ثم لنحاسين،
وليدخل فريق الجنة، وفريق النار»(٤٥)، وحول عقيدته في البعث والحساب يقول
شعرا:

بأت همومي تسري طوارقها	أكف عيني والدمع سابقتها
مما اتانسي من اليقين ولم	أوت براءة يقصي ناطقها
أم من تلظي عليه واقدة النار	محيط بهم سرادقها
أم أسكن الجنة التي وعد الأبرار	مصفوفة نمارقها
لا يستوي المنزلان ولا الأعمال	لا تستوي طرائقها
هما فريقان: فرقة تدخل الجنة	حققت بهم حدائقها
وفرقة منهم أدخلت النار	فساءتهم مرافقها(٤٦)

ويقول جواد علي: إن أمية حرم علي نفسه الخمر، وتجنب الأصنام، وصام،
والتمس الدين، وتكر إبراهيم وإسماعيل، وكان أول من أشاع بين القرشيين افتتاح
الكتب والمعاهدات والمراسلات بعبارة: باسمك اللهم (استعملها النبي محمد «صلي
الله عليه وسلم» ثم تركها واستعمل بسم الله الرحمن الرحيم)، وقد روي
الإخباريون قصصا عن التقاء أمية بالرهبان، وتوسمهم فيه أمارات النبوة، وعن
هبوط كائنات مجنحة شقت قلبه ثم نظفته وطهرته تهية لمنحه النبوة(٤٧). وأمية
هو القائل في رب الحنيفية الخلاق:

إله العالمين وكل أرض	ورب الراسيات من الجبال
بناها وابتني سبعا شدادا	بلا عمد يرين ولا حبال

وسواها وزينتها بنور من الشمس المضيئة والهلال
ومن شهب تلاللأت في دجاها مراميتها أشد من النصال
وشق الأرض فأنجبت عيونا وأنهارا من العذب الزلال
وبارك في نواحيها وزكي بها ما كان من حرث ومال

يعتبر أمية أحسن الحنفاء حظا في بقاء الذكر، فقد بقي كثير من شعره وحفظ قسط لا بأس به من أخباره، وسبب ذلك عند (جواد علي) بقاؤه إلى ما بعد البيعة، واتصاله بتاريخ النبوة والإسلام اتصالا مباشرا، وملاءمة شعره بوجه عام لروح الإسلام، برغم أنه حضر البيعة ولم يسلم، ولم يرض بالدخول في الإسلام، لأنه كان يأمل أن تكون له النبوة، ويكون مختار الأمة وموحدها، ولذلك، **هز كنموذج للاستقامة والإيمان والتطهر والزهد والتعبد**، وقد مات سنة تسع للهجرة بالطائف **كافرا بالوثان والإسلام** (٤٨)!! ويذكر الإخباريون المسلمون أنه لما سمع بخبر البيعة ذهب ليسلم، لكن بعض أهل مكة علموا بمسيره، فأرادوا رده عن غايته، فالتقوه عند القليب حيث قُبِرَ المسلمون سادات قریش في بدر الكبرى، ولعلم القرشيين بحكمة أمية - التي دعت من قبل إلى تقدير السادات؛ من حكماء مكة وأشرافها - فقد قالوا له: هل تدري ما في هذا القليب. قال: لا؛ فقالوا له: فيه شيبة وربيعة وفلان وفلان، فجدع أنف ناقته، وشق ثوبه وبكى قائلا: لو كان نبيا ما قتل نبي قرابته، وعاد يرسل نواحه شعرا يرثي قتلي بدر من أهل مكة، في قصيدته الحاثية التي يقول في بعضها:

ألا بكيت علي الكرام بني الكرام أولي المهاد
كبكا الحمام علي فروع الأيك في الغصن الصوادح
إن قد تغسير بطن مكة فهسي موحشة الأباطح
من كل بطريق لبطن يبق نقسي اللون واضح
ومن السرطمة الجلا جممة الملاوثة المناجس
القسائلين الغساعلين الأمرين بكل صالغ
المطعمين الشحم فوق الخبز شحما كالأنافح
خذلتهم فئة وهم يحمون عورات الفضائح
ولقد عناني صوتهم من بين مستشق وصاح (٤٩)

وقال الإمام أحمد: «حدثنا إبراهيم بن ميسرة أنه سمع عمرو بن الشريد يقول: قال الشريد: كنت رديفاً لرسول الله (أي راكباً معه علي بعير واحدة) فقال لي: أمعك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟ قلت: نعم؛ قال: فأنشدني بيتاً، فلم يزل يقول لي كلما أنشدته بيتاً: إيه، حتي أنشدته مئة بيت» (٥٠٠). ومن هذا الشعر ما يصح الوقوف معه كنموذج - لاشك رائع - لمعتقدات واحد من رجالات الحنفية (مع ملاحظة أن هذا الشعر قد يختلف الأمر في نسبته إليه أو إلي زميله في الحنفية زيد ابن عمرو بن نفيل، وما عدا ذلك فمتفق عليه)؛ فهو يقول في إيمانه:

الحمد لله ممساناً ومصيحناً بالخير صبحناً ربّي ومساناً رب الحنفية لم تنفد خزائنها مملوءة طبق الألقاق سلطاناً وفي إيمانه - مثل عبد المطلب وزيد - بيوم بعث ونشور؛ يقول:

ويوم موعدهم يحشرون زمراً	يوم التغابن إذ لا ينفع الحذر
وإبررزوا بصعيد مستوحرن	وأُنزل العرش والميزان والزُّيرُ
ويستطرد شارحاً مفصلاً عن هذا اليوم:	
عند ذي العرش يعرضون عليه	يعلم الجهر والكلام الخفيا
يوم تأتيه وهو رب رحيم	إنه كان وعده مأتيا
رب كُلاً حتمته النار	كتاباً حتمته مقضيا
ويحذر من عذاب الدار الآخرة فيقول:	
وسيق المجرمون وهم عراة	لي ذات المقامع والذكال
فنادوا ويلنا ويلاً طويلاً	وعجوا في سلاسلها الطوال
فليسوا ميتين فيستريحوا	وكلهم بحر النار سالي
وحمل المتقون بدار صدق	وعيش ناعم تحت الظلال
لهم ما يشتهون فيها وما تمنوا	من الأفراح فيها والكمال

وعن إبراهيم (عليه السلام) وابنه إسماعيل (عليه السلام) اللذين يرجع إليهما الحنفاء عقيدتهم؛ يحكي قصة الذبح والفداء؛ في حوار طويل ممتع، نجتزيء منه:

ابني إني نذرتك لله شحيصا
فأجساب الغلام أن يقال فيه
فناقض ما قد نذرت له واكفف
وبينما يخلع السراويل عنه
فأصبر قدا لك خالي
كل شيء لله غير انتحال
عن دمي أن يمسه سربالي
فسكه ربه بكبش حلال

وعن يونس يقول:

وأنت بفضل منك أنجيت يونس
وعن موسي وهارون ولقائهما بفرعون مصر يقول:

وأنت الذي من فضل ورحمة
فقلت له اذهب وهارون فادعوا
وقولا له: أنت سويت هذه
وقولا له: أنت رفعت هذه
بعثت إلي موسي رسولا مناديا
إلي الله فرعون الذي كان طاغيا
بلا وقد حتي اطمأنت كما هيا
بلا عمد، أرفق، إذا بك بانيا

وعن عيسي وأمه يقول:

وفي دينكم من رب مريم آية
تدلي عليها بعدما نام أهلها
فقال: ألا لا تجزعسي وتكذبي
أنبيي وأعطي ما سئلت فإنني
فقال: أنسي يكون ولم أكن
فسبح ثم اغترها فالتقت به
فقال لها: إني من الله آية
وأرسلت ولم أرسل غويا ولم أكن
منبئة بالعبد عيسي بأن مريم
رسولا فلم يحصر ولم يترمرم
ملائكة من رب عاد وجبرهم
رسول من الرحمن يأتيك بأبنم
بغيا ولا حبلي ولا ذات قسيم
غلاما سوي الخلقة ليس بتوأم
وعلمني، والله خير معلم
شقيا، ولم أبعث بفحش ومأثم

ويقول جواد علي مانصه: «وفي أكثر مانسب إلي هذا الشاعر من آراء ومعتقدات، ووصف ليوم القيامة والجنة والنار؛ تشابه كبير وتطابق في الرأي جملة وتفصيلا، لما ورد عنها في القرآن الكريم، بل نجد في شعر أمية استخداما لألفاظ وتراكيب واردة في كتاب الله والحديث النبوي قبل المبعث، فلا يمكن - بالطبع - أن يكون أمية قد

اقتبس من القرآن؛ لأنه لم يكن منزلاً يومئذ، وأما بعد السنة التاسعة الهجرية؛ فلا يمكن أن يكون قد اقتبس منه أيضاً؛ لأنه لم يكن حياً؛ فلم يشهد بقية الوحي!! ولن يكون هذا الفرض مقبولاً في هذه الحال.. ثم إن أحداً من الرواة لم يذكر أن أمية ينتحل معاني القرآن وينسبها لنفسه، ولو كان قد فعل لما سكّت المسلمون عن ذلك، ولكان الرسول أول القاضحين له^(٥١). وهذا - بالطبع - مع رفض فكرة أن يكون شعره منجولاً أو موضوعاً من قبل المسلمين المتأخرين؛ لأن في ذلك تكريماً لأمية وارتفاعاً بشأنه، وهو ما لا يقبل مع رجل كان يهجو نبي الإسلام (صلي الله عليه وسلم) بشعره، ولا يبقى سوى أنه كان حنيفياً مجتهداً استطاع أن يجمع من قصص عصره. وما كان عليه الحنفاء من رأي في شعره؛ خاصة مع ما قاله بشأنه ابن كثير: «وقيل إنه كان مستقيماً، وإنه كان أول أمره علي الإيمان، ثم زاغ عنه»^(٥٢). ولاريب أن الاستقامة تفرز الاستقامة وتلتقيها، وربما كتب ما كتب إبان هذه الفترة التي يحددها لنا ابن كثير، ولاريب أنها كانت قبل البعثة النبوية؛ لأنه بعده - ولاشك - زاغ عن إيمانه واستقامته؛ إذ رأي الملك والنبوة تخرجان من بين يديه؛ بعد أن أعد نفسه لهما طويلاً.

هوامش

- ١ - ثريا منقوش: التوحيد يمان ص ١٥٩.
- ٢ - د. جواد علي: المفصل، ج ٥، ص ٥٩.
- ٣ - الألويسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، القاهرة، ١٩٢٤، ج ٢، ص ٢٢٥.
- ٤ - ابن الجوزي: تلبيس إبليس، تصحيح محمد منير الدمشقي، المطبعة المنيرية، ص ٧٤.
- ٥ - العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧، ص ١٤٤.
- ٦ - الألويسي: بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٢٤٤.
- ٧ - الشهر ستاني: الملل والنحل، المطبعة الأزهرية، القاهرة، ١٩٥١، ج ١، ص ٩٦.
- ٨ - عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧، ج ٢، ص ٢٦٤.
- ٩ - الجاحظ: البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٤٨، ج ١، ص ٣٠٩.
- ١٠ - الألويسي: بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٢١٩ و ٢٥٩.
- ١١ - ابن حبيب: المحبر، ص ١٣٦.
- ١٢ - الألويسي: بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٢٦٠.
- ١٣ - ابن هشام: السيرة ج ١، ص ٥١٠.
- ١٤ - ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، مطبعة السعانة، القاهرة ١٣٢٣ هـ، ج ٣، ص ٣٦٢.
- ١٥ - ابن هشام: السيرة، ج ١، ص ٥١١ و ٥١٢.
- ١٦ - الألويسي: بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٢٧٢.
- ١٧ - الأب لويس شيخو: شعراء النصرانية في الجاهلية، مكتبة الآداب، الحلمية الجديدة القاهرة، ١٩٨٢، ج ٤، ص ٦١٧، ٦١٨.
- ١٨ - الألويسي: بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٣٧٥.

- ١٩ - ابن حبيب: المحبر، ٢٢٩.
- ٢٠ - الألويسي: بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٢٧٦.
- ٢١ - نفسه: ص ٢٧٧.
- ٢٢ - الموضع نفسه.
- ٢٣ - ابن حبيب: المحبر، ص ٢٣٨.
- ٢٤ - د. جمال العمري: الشعراء الحنفاء، ص ١٦٤.
- ٢٥ - ثعلب: شرح ديوان زهير، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٣٥.
- ٢٦ - نفسه: ص ٢١٩.
- ٢٧ - نفسه: ص ٢٨٤.
- ٢٨ - جواد علي: المفصل، ج ٥، ص ٢٩٠.
- ٢٩ - الشهر ستاني: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، نشر مصطفى الياباني الحلبي، القاهرة ١٩٦١، ج ١، ص ٢٣١.
- ٣٠ - د. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة، ص ٢٣٩؛ ٢٤١ و ٢٤٥.
- ٣١ - ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٢١، ٢٢٤.
- ٣٢ - البيهقي: دلائل النبوة، ج ٢، ص ١٢٣ و ١٢٤.
- ٣٣ - الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٢٩٦.
- ٣٤ - المسعودي: مروج الذهب، ج ١، ص ٧٠ وانظر أيضا بوعلی ياسين: الشالوث المحرم، الطليعة، بيروت، ط ٤، ١٩٨٠، ص ٧٠ و ٨٥.
- ٣٥ - ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٢٥.
- ٣٦ - د. جمال العمري: الشعراء الحنفاء.
- ٣٧ - ابن هشام: السيرة، ج ١، ص ٢٠٨.
- ٣٨ - نفسه: ص ٢٠٦.
- ٣٩ - نفسه: ص ٢٠٧، ٢٠٨. وانظر أيضا البيهقي، ج ٢، ص ١٢٥، ١٢٦. وقد ذكر ابن الكلبي في كتاب الأسماء ص ١٢ إن النبي ذكر العزي يوماً، فقال: لقد أهديت للعزي شاة عفراء وأنا علي دين قومي.
- ٤٠ - الشهر ستاني: الملل والنحل، ج ٢، ص ٢٤٨. وانظر أيضا ابن هشام السيرة، ج ١، ص ٢٠٨ و ٢٠٩.
- ٤١ - ابن سعد: الطبقات الكبير طبعة لندن، ٩٢٢ هـ، ج ٢، ق ١، ص ٢٧٦.

- ٤٢ - الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت ج٣، ص١٢٢.
- ٤٣ - ابن هشام: السيرة، ج١، ص٢٢٧.
- ٤٤ - ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص٢٠٥.
- ٤٥ - نفسه: ص٢٠٦.
- ٤٦ - نفسه: ص٢٠٩.
- ٤٧ - جواد علي: المفصل، ج٥، ص٢٨٠ و٢٨١. وانظر ابن هشام: السيرة ج١، ص٢٠٨ و٢٠٩. وانظر أيضا ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٢٠٦:٢٠٨.
- ٤٨ - نفسه: ص٣٧٧ و٣٧٨ و٣٨٣.
- ٤٩ - لويس شيخو: شعراء النصرانية، ج٣، ص٢٢٢.
- ٥٠ - ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص٢١٢.
- ٥١ - جواد علي: المفصل، ج٥، ص٣٨٤ و٣٨٥.
- ٥٢ - ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص٢٠٥.

ظهور النبي المنتظر

يتأكد مما سبق أن قدسية الكعبة، وتحريمها، ثم تحريم شهور محددة لانطلاق قوافل التجارة، وحج العرب إليها، قد جسد - رمزيا - مكانة مكة القيادية بالنسبة إلى القبائل العربية على الجانب السياسي، وكان تحريمها ضمنا؛ خرا لتقديسها، وأمانا من مطامع من يريد السيطرة عليها من القبائل الأخرى، مع - أضافته بشر زمزم وقصتها مع عبد المطلب من قدسية أخرى، تضاف إلى لبنات الأيديولوجيا الدينية المتنامية التي بلغت أوجها في توحيد القبائل على شعائر محددة تقام في مكة، حددت نوع الولاء، ونوع العبادة؛ مما حمل في رحمه بذور الوحدة السياسية المقبلة التي ارتهنت بولاء القبائل لسلطان مكة، وعندما جاء دين الإسلام العظيم، لم يلغ شعائر الحج القديمة ولا حرمة مكة، وإنما أخذ على عاتقه محاربة العصبية القبلية وتعدد الآلهة، ثم اعتبرت ذاته من جهة أخرى استمراراً لدعوة إبراهيم (عليه السلام)، كما كان واضحا أن النبي (صلي الله عليه وسلم) اتخذ خطوات متسارعة لتكوين قوة عسكرية؛ قامت بدورها في توحيد جزيرة العرب جميعا.

ومعلوم أن المصطفي (صلي الله عليه وسلم) - بعد أن طوت راحة الزمن جده عبد المطلب - شب في كنف عمه أبي طالب، وبيولوجه (صلي الله عليه وسلم) مرحلة الشباب؛ تزوج السيدة خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) التي وصفها ابن إسحق بأنها «كانت امرأة تاجرة؛ ذات شرف ومال»^(١)، ووصفها ابن سيد الناس بأنها كانت أكثر نساء العرب مالا^(٢)، وكانت تكبر النبي (صلي الله عليه وسلم) بنحو خمس عشرة سنة؛ مما وفر له (صلي الله عليه وسلم) الوقت الكافي، والاطمئنان النفسي للانصراف من السعي وراء الرزق، إلى التفكير في شؤون قومه السياسية والدينية. وفي ذلك يقول الدكتور أحمد الشريف: «ثم إن النبي وجد بعد زواجه من خديجة بنت خويلد - وهي إحدى النساء الغنيات الشريفات في مكة - نوعاً من الراحة النفسية.. وقد كان في هذا الزواج من العوامل التي جعلته يتخفف من بعض أعباء الحياة، ومن بعض عناء السعي؛ فخديجة الغنية بمالها التي كانت امرأة نصف؛ قد فارقت عهد الشباب الأول، وكانت لها تجربة في إدارة أمورها، كانت أقدر على حياة زوجية هادئة رصينة، هيأت لمحمد أن يتخفف من أعباء الحياة لأفكاره الذاتية»^(٣).

ومعلوم أيضا أن النبي محمد (صلي الله عليه وسلم) كان الزوج الثالث للسيدة خديجة، بعد عتيق بن عابد الذي أنجبت منه هنداً، وأبي هالة الذي أنجبت منه هالة وهنداً أيضاً^(٤)، وقد أوضح القرآن الكريم فضل هذه السيدة علي نبيه (صلي الله عليه وسلم) وعلي المسلمين؛ في قوله تعالى: ﴿ووجدك عائلاً فأغني﴾، وكان النبي

(صلي الله عليه وسلم) يقول «..أمنت بي حين كذبتني الناس، وواستني بمالها حين حرمني الناس».

وعندما تزوج المصطفى (صلي الله عليه وسلم) من السيدة خديجة (رضي الله عنها)؛ أكثر الناس من الكلام في هذه الزيجة، وهنا يروي لنا ابن كثير «..أن عمار ابن ياسر كان إذا سمع ما يتحدث به الناس عن تزويج رسول الله (صلي الله عليه وسلم) خديجة، وما يكتثرون فيه؛ يقول: أنا أعلم الناس بتزويجه إياها، إني كنت له ترباً، وكنت له إلفاً وخذناً، وإني خرجت مع رسول الله (صلي الله عليه وسلم) ذات يوم؛ حتي إذا كنا بالحزورة؛ أجزنا علي أخت خديجة وهي جالسة علي أدم تبعيها، فنابتني؛ فانصرفت إليها، ووقف لي رسول الله (صلي الله عليه وسلم) فقالت: أما بصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة؟ قال عمار: فرجعت إليه فأخبرته، فقال: بلي لعمري؛ فنكرت لها قول رسول الله (صلي الله عليه وسلم)؛ فقالت: اغدوا علينا إذا أصبحنا؛ فغدونا عليهم، فوجدناهم قد ذبحوا بقرة، وألبسوا أبا خديجة حلة، وصفرت لحيته (أي صبغت بالحناء)، وكلمت أخاه؛ فكلم أباه وقد سقي خمراً، فذكر له رسول الله (صلي الله عليه وسلم) ومكانه، وسأله أن يزوجه؛ فزوجه خديجة، وصنعوا من البقرة طعاماً فأكلنا منه، ونام أبوها، ثم استيقظ صاحباً فقال: ما هذه الحلة؟ وما هذه الصفرة؟ وهذا الطعام؟ فقالت له ابنته التي كانت قد كلمت عمار بن ياسر: **هذه حلة كساها محمد بن عبد الله ختنك، وبقرة أهداها لك فذبحناها حين زوجه خديجة؛ فأنكر أن يكون زوجه، وخرج يصيح حتي جاء الحجر، وخرج بنو هاشم برسول الله (صلي الله عليه وسلم) فكلموه؛ فقال: أين صاحبكم الذي تزعمون أنني زوجه خديجة؟ فبرز له رسول الله (صلي الله عليه وسلم) فلما نظر إليه قال: إن كنت زوجته فسبيل ذلك، وإن لم أكن فعلت فقد زوجته»^(٥)!!**

أما عمه أبو طالب فآلقي في العرس خطبة؛ منها قوله «..فتحن سادة العرب وقابلاتها، وأنتم أهل ذلك كله، لا ينكر العرب فضلكم..ورغبنا في الاتصال بحيلكم وشرفكم.. وأمرت خديجة جواريتها أن يرقصن ويضربن الدفوف، وفرح أبو طالب فرحاً شديداً»^(٦).

وبعدها أخذ محمد (صلي الله عليه وسلم) يتابع خطوات جده عبد المطلب إلي غار حراء؛ مما حول هذا الكهف إلي مكان مقدس ودخل التاريخ دون ملايين مثله، وبالحنيفة آمن، ولم يكد يبلغ الأربعين من عمره حتي حسم الأمر، بإعلانه أنه نبي الأمة، بعد أن أوحى إليه إله إبراهيم «..أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً» - ١٢٢ النحل.

وكما حدث مع أمية بن عبد الله حدث مع محمد بن عبد الله (صلي الله عليه وسلم)؛ فتحدثنا الأخبار أن راهبا مسيحيا يدعي (بحيرا) قد توسم فيه أمارات النبوة، واكتشف خاتمتها في كتفه. ويحدثنا النبي (صلي الله عليه وسلم) عن نفسه فيقول: «أنا دعوة إبراهيم، ويشري عيسى، رأيت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينما أنا مع إخ لنا خلف بيوتنا نرعي بهما، إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض؛ بطست من ذهب مملوءة ثلجا، فشقا بطني واستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسلا قلبي ويطنني بذلك الثلج حتي أنقياه» (٧)!!

وتقول سيرة ابن هشام: إن محمداً (صلي الله عليه وسلم) لما بدأ قومه بالإسلام؛ لم يجدوا في دعوته غضاضة، ولربما لم يكثرثوا لها، ولعل مرجع ذلك إلى حرية الاعتقاد التي كانت عرفا مسنونا، عرفا حتمته المصالح التجارية في مكة؛ فكان المسيحي فيها يعيش إلى جوار الحنفي إلى جانب اليهودي، مع الصابي والزنادقة، وعبد النجوم، وعبد الجن، وعبد الملائكة، وعبد الأسلاف وتماثيل الشفعاء؛ دونما قهر أو فرض أو إيجاب؛ حتي إن العيد كان يظل علي دين يخالف دين سيده؛ دون أن يخشي في ذلك مساءلة أو ملامة، ويرغم أن محمداً (صلي الله عليه وسلم) من الفرع الهاشمي؛ فإن حزب (عبد الدار - عبد شمس - نوفل) لم يهتم كثيرا في البداية للدعوة الجديدة؛ خاصة أن محمداً (صلي الله عليه وسلم) لم يخرج آنذاك عن أطر عرفهم المسنون في حرية الاعتقاد؛ فلم يجبر أحداً لاعتناق دعوته، كما لم يحاول فرضها أو اعتبارها الديانة الوحيدة الواجب اعتناقها، وتشهد بذلك الآيات الكريمة:

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَابِي دِينِ﴾ - ٦ الكافرون.

﴿أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ - ٩٩ يونس.

﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ - ٢٣ فاطر.

﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ - ١٠٧ الأنعام.

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ - ١٠ المزمل.

ومع أن المناوشات الكلامية التي دارت بين المكيين ومحمد (صلي الله عليه وسلم) لم تصل بالقوم إلي حافة شفير الحرب مرة أخرى؛ فإنها نبشت الجمر الثاوي في

القلوب؛ بعدما أعلن محمد (صلي الله عليه وسلم) دعوته؛ مطالبا أهل مكة باتباعه؛ فكان حتما أن يتساءل الناس، لكن تساؤل الوليد بن المغيرة (الملقب بالوحيد لمكانته بين سادات مكة)، والأخنس بن شريق (كبير من رؤوس ثقيف) - كان تساؤلا مهيئا لشخص النبي (صلي الله عليه وسلم)؛ فقد قالوا: أمفتون محمد أم مجنون؟^(٨)، فكان أن ردت لهما الآيات الكريمة الصاع صاعين ﴿بأيكم المفنون... هماز مشاء بنميم. مناع للخير معتد أثيم. عتل بعد ذلك زنيم﴾ - ١٣: ٦ القلم، والزنيم هو ابن الزانية - ثم يخاطب الله نبيه في شأن الرجيد قائلا له: ﴿ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا، وبينين شهودا، ومهدت له تمهيدا، ثم يطمع أن أزيد. كلا إنه كان لآياتنا عنيدا، سأرهقه صعودا، إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر﴾ - ١١ : ٢٠ المدثر، وفعل مات الوليد قتيلا بسهم مسموم، قتله الله. ثم قامت الآيات تشبه رؤوس القوم الذين لم يدركوا أبعاد تلك الدعوة العظمي ومراميها الكبرى؛ بالحمير؛ فتقول: ﴿فمالهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة. فرت من قسورة﴾ - ٤٩ : ٥١ المدثر.

حتى ذلك الحين؛ كانت قريش لاتزال في هدوء وترقب، لكن محمدا (صلي الله عليه وسلم) الذي صمم علي إتمام الأمر مهما تكلف من مشقة، قام يؤلب العبيد علي أسيادهم يناديههم: «اتبعوني أجعلكم أنسابا، والذي نفسي بيده لتملكن كنوز كسري وقيصر»، وهنا بدأ القوم يشعرون بحجم الخطر الآتي؛ فالأرستقراطية القرشية حتمت مصالحها وجود العبيد، بل أن يتكون جيشهم الذي يحمي التجارة من هؤلاء العبيد في أغلبه، ويات الأمر أمر حياتهم ومعاشهم، ثم إن دعوة النبي (صلي الله عليه وسلم) إلي جعلهم أنسابا التي تمثلت في عتقه لعيده زيد بن حارثة ثم إعطائه أفضل النسب وأشرقه، بتبنيه إياه؛ كان يعني لبقية الدهماء من الأعراب أملا عظيما؛ لما كان للنسب من خطورة وأهمية؛ تعطي صاحبها حماية عشائرية وقبيلية، ثم إنه يعدهم بأموال أعظم؛ بأموال كسري وقيصر؛ إن هم تبعوه، وعندما وصلت قريش إلي ذلك الفهم؛ أصبح النبي (صلي الله عليه وسلم) في نظروهم، وحسب منطقهم المصلحي؛ مجرد مفارط لموج يهدف لغرض سياسي يبدأ بحرب قريش في مقتل؛ في مصالحها التجارية، حتي إذا تهيأ له الأمر امتلاك أمر الحجاز، وزحف علي ممالك الروم والعجم، وما يتبع ذلك بالضرورة في منطق العشائر من رفع شأن بيت هاشم، وحفض شأن بيت عبيد الدار وعبيد شمس ونوقل.. هكذا تصوروا الأمر العظيم!!

ثم هاهو ينزع عنهم صفة أخرى ترتبط تماما بمصالحهم التجارية؛ تلك الصفة التي أكسبها لهم انكسار حملة القيل علي حدود مكة؛ صفة أنهم (أهل الله)، وبينادي أهل مكة: «قل يا أيها الكافرون..... لكم دينكم ولي دين» - سورة الكافرون، نعم؛ مازالت الآيات تبرز التسامح الديني (لكم دينكم ولي ديني)، لكنها نعتت أهل مكة بأنهم الكافرون؛ برغم تأكيدها من قبل أنهم قوم يؤمنون بالله رب العرش خالق السماوات والأرض؛

«ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنبي يؤفكون» - ٦١ العنكبوت.

«قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم. سيقولن لله قل أفلا تتقون. قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون. سيقولن لله، قل فأنبي تسحرون» - ٨٦ : ٨٩ المؤمنون.

«ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم» - ٩ الزخرف.

وسعياء وراء تحليل؛ اكتشفت قريش أن إيمانها بالشفعاء هو الكفر؛ خاصة عندما بدأ رسول الله (صلي الله عليه وسلم) يعيب أربابهم؛ فاستنتجوا أن محمدا (صلي الله عليه وسلم) قد جعل شرط الإيمان الصحيح يمر عبر الإيمان به كرَسُولِ إله واحد؛ انطلاقا من قرن الشهادة له مع الشهادة لله؛ في شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فهو في فهمهم العنيد، إنما يطلب منهم الاعتراف بسيادته عليهم بهذه الشهادة، ويطلب توحيدهم جميعا تحت راية قيادته وحده، بسلخ كل الشفاعات إلا شفاعته، ويذكر لنا الطبري أن النبي (صلي الله عليه وسلم) حينما دعا قومه لما بعثه الله. لم يبعدوا منه أول ما دعاهم، وكادوا يسمعون له حتي ذكر طواغيتهم^(٩) وهو ذات ما أوضحته رواية عن لقاء وفد قريش وفيه أبو الحكم، بأبي طالب وابن أخيه (صلي الله عليه وسلم)؛ ليطلب من محمد (صلي الله عليه وسلم) الكف عن سب أربابهم ويتركونه لإلهه، فكان رد رسول الله (صلي الله عليه وسلم) عليهم: «أي عم، أو ادعوه إلي ما هو خير لهم منها؟ قال: وإلام تدعوه؟ قال: ادعوه أن يتكلموا بكلمة تدين بها لهم العرب، ويملكون بها العجم!! فقال أبو جهل (التسمية الإسلامية لأبي الحكم) من بين القوم: ما هي؟ وأبيك لتعطيكها وعشر أمثالها»، وكانت الكلمة هي الشهادة الإسلامية؛ فنفروا منه وتفرقوا^(١٠).

وهنا تحول أرق الحزب المناويء وترقبه، إلي تحفز واستنفار، خاصة عندما أخذت الآيات الكريمة في فواصل قصيرة مؤثرة، تؤجج الحمية القتالية، وما يحمله ذلك من احتمال وقوع المجابهة العسكرية، ونقول: ﴿والعاديات ضبحا. فالموريات قدحما. فالغيرات ضبحا. فأثرن به نغما﴾ - ١ : ٤ العاديات، هذا مع التحول الذي بدأ يطرأ في سلوك النبي تجاههم، وتحوله عن الصبر الجميل إلي الهجوم، وما جاء في رواية عبد الله بن عمرو بن العاص، عندما غمز أشراف قريش من قناة النبي (صلي الله عليه وسلم) وهو يطوف بالكعبة، فكان أن التفت إليهم هاتفا: «أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح»^(١١)، وبر النبي (صلي الله عليه وسلم) بقسمه في بدر الكبرى!

هوامش

- ١- ابن هشام: في كتاب الروض للسهيلي، ج ١، ص ٢١٢.
- ٢- ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج ١، ص ٢٦٢.
- ٣- د. أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص ٢٥٠، ٢٥١.
- ٤- الحلبي: السيرة، ج ١، ص ٢١٢، ٢٢٩.
- ٥- ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٧٤.
- ٦- الحلبي: السيرة، ج ١، ص ٢٢٧.
- ٧- الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٢٩٤.
- ٨- ابن هشام: السيرة، ج ١، ص ٢٤٣.
- ٩- الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٣٢٨.
- ١٠- نفسه: ص ٢٤١.
- ١١- نفسه: ص ٣٣٢.

العصبيّة والسياسة

وعظم الأمر علي الحزب المناويء فذهب رؤوس القوم؛ عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب بن أمية، وغيرهم من الأشراف لمقابلة أبي طالب عم محمد (صلي الله عليه وسلم)؛ ليثنيه عما اعتزّم، فكان أن ردهم أبو طالب ردا حسنا، ولم يتوقف النبي عما اعتزّم؛ فعادوا إلي أبي طالب مرة أخرى؛ فقالوا له:

يا أبا طالب، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإذا قد استنهيئك عن ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر علي هذا؛ من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب ألھتنا، حتي تكفه عنا، أو ننازله وإياك حتي يهلك أحد الفريقين.. فعضم علي أبي طالب فراق قومه وعدوتهم.

ودعا أبو طالب ابن أخيه، وكاشفه بما كان من أمر بني العمومة فقال: يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا: كذا وكذا.. فأبقي عليّ وعلي نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق؛ محاولا بذلك وقف أمر قد يجر حريا لا تبقي تجارة ولا نسلا، لكن هذا الاجتماع التاريخي بين العم وابن أخيه، لم ينته كما بدأ، بدليل أن أبا طالب ختمه بقوله: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا. وكانت النتيجة التي سجلتها كتب التاريخ الإسلامي أن.. حقب الأمر، وحميت الحرب، وتنازل القوم، وبأذا بعضهم بعضا. وقام حزب عبد الدار يستجمع حلفاء لمواجهة ما بدأت تذرّه في الأفق^(١) برغم نداء بعض العقلاء، مثل عتبة بن ربيعة الذي التقى النبي، وأدرك الأهداف الكبرى للدعوة؛ فقام يقول لقريش:

يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر علي العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به (٢).

وعلي الطرف الآخر؛ أعلن الهاشميون أنهم قد منعوا فتاهم؛ برغم عدم مقابلة دعوتهم نيحيا؛ اللهم إلا أفرادا فرادى، فكانت عصبيتهم القبلية درعا قويا لدعوة حفيد عبد المطلب، التي استنفرت الحزب المناويء الذي أصر علي زعمه أنها دعوة لو كتب لها النجاح لصار الأمر كله إلي البيت الهاشمي.

وفي روايتها عن هذه المنعة الهاشمية؛ تقول سيرة ابن هشام: وقد قام أبو طالب

حين رأي قريشاً يصنعون ما يصنعون في بني هاشم وعبد المطلب؛ فدعاهم إلي ما هو عليه من منع رسول الله (صلي الله عليه وسلم) والقيام دونه فاجتمعوا إليه وقاموا معه، وأجابوه لما دعاهم إليه، إلا ما كان من أمر أبي لهب^(٣).

وأبو لهب هو عبد العزي بن عبد المطلب عم النبي، ولقب بهذا اللقب لحمرة شديدة في وجهه وحسن، وهو من تبت الآيات الكريمة يديه؛ لأنه كان حريصاً علي مسألة بيت عبد شمس المناويء؛ لأن أمراته - في الآيات حمالة الحطب - كانت في الصدارة من شريفات البيت الأموي، وكانت شقيقة أبي سفيان رأس هذا البيت.

ويتجلي مدى قدرة هذه المنعة الهاشمية وقوتها، وأثرها علي نفوس الأطراف المناوئة؛ في قول نعيم بن عبد الله لعمر بن الخطاب، وقد التقاه يسعي لقتل محمد (صلي الله عليه وسلم) «والله لقد غشتك نفسك في نفسك يا عمر، أتري بني عبد مناف تاركيك تمشي علي الأرض وقد قتلت محمداً؟»، وبهذا يمكن إدراك ما وصل إليه حال بني العمومة وحزبهم، وأبناء عبد مناف الهاشميين الذين ظهر فيهم نبي الأمة وموحد كلمتها، لكن كان كل الهم لدي الأحلاف أنه يمكنه بدعوته حيازة كل الألوية لبيته وعشيرته.

وفي أشعار أبي طالب اعتزاز واضح بأمله وبنته ورهطه؛ مع عمق غير خاف في النظرة السياسية للوضع المكي، ومثال لذلك قوله:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخرة فعيد مناف سرها وصميمها
وإن حصلت أشراف عبد مناف ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت هاشم يوماً فإن محمداً هو المصطفى سرها وكريمها
تداعت قريش غثها وسمينها علينا فلم تظفر وطاشت حلومها^(٤)

نعم؛ ليحلم بنو عبد الدار؛ ليحلم نوفل؛ ليحلم بنو عبد شمس؛ ليحلم الأمويون ما شاءوا فالرؤية التنبؤية لأبي طالب، تتوقع أو تخطط؛ لتطيش هذه الحلول؛ لأن هاشمياً ستقف مع محمد (صلي الله عليه وسلم) حتي تنصره وتتصر به، ويوضح جانب آخر من شعر أبي طالب سر هذا الجهر في مواجهة حزب عبد الدار بقوله:

ولما رأيت القوم لاود فيهم وقد قطعوا كل العري والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذي وقد طأوعوا أمر العدو المزابل

وقد حالفوا قوما علينا، وقد أظنهم يعضون غيظا خلفنا بالأناسمل
أحضرت عند البيت رهطي وإخوتي وأمسكت من أثوابه بالحصائل^(٥)

ويفهم من أبيات أبي طالب هنا أنه لما رأى العداوة بادية في الحزب المناويء، وأنهم
برغم عري القرابة حالفوا ضدهم أحلافا؛ غيظا وكمدا وحسدا، لأن منهم نبيا -
جمع رهطه وأهله وتعاهدوا عند الكعبة وهم يمسكون بأرديتها، وعلي الطرف الآخر؛
نجد عمرو بن هشام الملقب بأبي جهل يقول: «ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد
مناف الشرف؛ أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتي إذا تحاذينا
علي الركب وكنا كفريسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء!! والله لا
نؤمن به ولا نصدقه»^(٦)، ثم يرسل شعره قائلا:

أتونا بإفك كي يضلوا عقولنا وليس مضلا إفكهم عقل نبي عقل^(٧)

ومن الجدير بالذكر أن عمرو بن هشام لم يكن رجلا أحمق أو أبله؛ بدلالة تحاكم
العرب إليه في النفورة والمشاورة والمخايرة منذ أحداثه؛ حتي إنهم أدخلوه دار الندوة
صبييا، وقال عنه حكيم فزارة؛ قطبة بن سيار؛ لما تنافر إليه ابن طفيل وعلقمة بن
علائة عليكم بالحديد، الذهن، الحديث السن^(٨).

وعلي ذلك؛ فلم يكن أمام عبد الدار وعبد شمس - منعا للحرب - إلا أن تطيق
علي بني هاشم عقوبات التجار؛ بمحاصرتهم اقتصاديا؛ فكان أن جاءها الرد من أبي
طالب بتحد هاشمي سافر في قوله:

كذبتم ورب البهيت نترك مكة ونظعن إلا أمركم في بلابل

كذبتم وبيت الله نبرزي محمدا ولما تطاعون بوفه وننفضل

ونسلمه، حتي نصرع حسوله ونذهل عمن أبناثنا والحلائل

ويدهض قوم في الجند إليكم نهوض الروايا تحت الصلاصمل

وأما لعمر الله أن جد ما أري لتلتبس أسفاننا وبالأماثل

فإن يلقيها، أو يمكن الله منهما نكل لهما صاعا بضاع المكاييل^(٩)

والذي رؤوس حزب عبد الدار: أبي الوليد، وعتبة وأبي سفيان، يتوجه مستميلا
متحبيبا محذرا:

وسائل أبا الوليد: ماذا حبوتنا
 وكنت أمرا ممن يعاش برأيه
 فعتبة: لا تسمع بنا قول كاشح
 وفر أبو سفيان عني معرضا
 يفر إلي نجد ويرد مياهه
 ويخيرنا فعل المناصح أنه: شقيق
 يسعك فينا معرض، كالمخاض
 ورحمته فينا ولست بجاهل
 حسود كذوب ميفض ذي دغاؤل
 كما مر قبل من عظام المقاول
 ويزعم: أني لست عنكم بغاف
 ويصفي عارمات الدواخل (١٠)

ولما لا يجد ودا: يعلن أهداف البيت الهاشمي السياسية، بوضوح جهير ومباشر،
 فيقول:

جزى الله عنا عبد شمس وتوفلا
 بميزان قسط لا يخس شعيرة له
 فأبلغ قصيا: أن سينشر أمرنا
 وكان لنا حوض السقاية فيهم
 شهاب من المطيبين وهاشم
 فما أدركوا نحلا، ولا سفكوا دما
 بضرب تري الفتيان فيه كأنهم
 عقوبة شر عاجلا غير أجل
 شاهد من نفسه غير عائل
 ويشر قصيا بعدنا بالتخاذل
 ونحن الكدي من غالب والكواهل
 كبيض السيوف بين أيدي الصياقل
 وما حالفوا إلا شرار القبائل
 ضواري لسود فوق لحم الخرائل (١١)

وعن شدة تعلقه بابن أخيه وكلفه به، وأنه لولا المسبة والعار لآمن بدعوته الدينية، يقول:

لعمري لقد كلفت وجد بأحمد
 فلا زال في الدنيا جمال لأهلها
 فمن مثله في الناس أي مؤمل
 لكن اتبعناه علي كسل حالة
 لقد علموا أن أبنتنا لا مكذب
 فأصبح أحمد فينا في أرومة
 جذبت بنفسي وحميته
 فأيسده رب العباد بنصره
 وإخوته دأب في حومة المجد فاصل
 وزينا لمن والاه رب المشااكل
 إذا قاسه الحكماء عند التفاضل
 من الدهر، جد غير قول التهازل
 لدينا، ولا يعني بقول الأباطل (١٢)
 تقصر عن سوء المتطاول
 ودافعت بالسذرا والكلال
 وأظهر لنا حقه غير باطل (١٣)

هوامش

- ١ - ابن هشام: السيرة ج ١، ص ٢٣٨ و ٢٤١.
- ٢ - نفسه: ص ٢٦٢.
- ٣ - نفسه: ص ٢٤٢.
- ٤ - الموضع نفسه.
- ٥ - نفسه: ص ٢٤٥.
- ٦ - ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج ١ ص ١٤٠.
- ٧ - ابن هشام: السيرة، ج ٢، ص ٢٤٧.
- ٨ - جواد علي: المفصل، ج ٥، ص ٢٣٥.
- ٩ - الشهرستاني: الملل والنحل، ج ٢، ص ٢٤٠. وانظر ابن هشام: السيرة ج ١، ص ٢٤٧.
- ١٠ - ابن هشام: السيرة، ج ١، ص ٢٤٨ و ٢٤٩.
- ١١ - نفسه: ج ٢٢، ص ٢٤٩ و ٢٥١.
- ١٢ - نفسه: ج ١، ص ٢٥١.
- ١٣ - البيهقي: دلائل النبوة، ج ٢، ص ٤٤٤.

الدولة

هذا ما بلغ إليه أمر مكة؛ المحطة الكبرى علي طريق ترانزيت العالم؛ تلك التي تحولت إلي حاضرة كبيرة، في وقت تساعد فيه الشعور القومي العربي في بطاح الجزيرة علي اختلافها، وبلغ مداه في تضامن متأجج مع عرب قبائل شيبان وعجل وبكر بن وائل ضد الفرس العجم، والفرح الاحتفالي الهائل الذي امتد شهورا في بقاع الجزيرة بانتصار هذا الحلف علي الفرس أو العجم، والذي ترك أثره في الفهم العربي الكلاسيكي الذي يقسم الناس إلي عرب وعجم، والفرح الثاني الذي تمثل في هرع القبائل العربية جميعا إلي الجنوب، تزفها البشري ويدفعها الإحساس الفخري لتهنيء سيف بن ذي يزن بالاستقلال عن الأحباش؛ فقد كانت قبائل بكر وشيبان وعجل هي محطة المرور الأخيرة والكبرى علي حدود فارس الغربية مع الجزيرة العربية أما اليمن فكانت منذ القديم أخطر محطة تجارية علي خطوط العالم القادمة من الصين والهند وشرقي أفريقيا، لتصب في بحر رمال الجزيرة؛ لتحملها سفن الصحاري إلي الشمال حيث إمبراطوريات ذلك الزمان، **فالأمكان نزع قومية واضحة؛ ترتبط بمصالح اقتصادية أشد وضوحا؛ حتي إن القرآن الكريم نفسه** عندما جاء بعد ذلك، أبدى تعاطفه الكريم مع أصحاب الأخدود في اليمن، وهم مسيحيون اضطهدوا من قبل ذي نواس اليهودي المعضد من عجم فارس، ثم أبدى تعاطفه مع الروم بحسبانهم امتدادا طبيعيا للخط التجاري المكي؛ فإنه من وجهة نظر دينية بحتة؛ إنما عاضد الديانة المفترض أنها الأصح قبل ظهور الإسلام، وبحسبانها الديانة الناسخة للديانة اليهودية، وبرغم ذلك؛ فإن القومية تبرز بوضوح جلي في موقفه من أصحاب الفيل؛ عندما يصبح الصراع بين المسيحية (برغم كونها كانت الديانة الصادقة في المنظور الديني قبل ظهور الإسلام) وبين مكة رمز العروبة والروح القومية (برغم كونها كانت حتي عام الفيل مركزا من أخطر المراكز الوثنية في العالم) وبالطبع، مع اعتبار العامل الاقتصادي الذي دفع الحبيشة لمحاولة احتلال مكة التي لم تعد في ذلك الوقت مجرد محطة تأخذ العشور والضرائب، وإنما تحول أهلها إلي امتلاك هذه التجارة، فكانوا يشترون تجارة اليمن والشام بأموالهم ويحققون الفائض الذي يحدونه هم أصلا.

وقد أتاح لمكة هذا الدور المتعاضد عامل آخر؛ هو الضعف الذي طرا علي المدينة المنافسة (يثرب)؛ برغم أنها كانت مهية قبل مكة لأخذ هذا الدور، لوجود اليهود كمركز سياسي واقتصادي عريق فيها، لكن هذا الوجود ذاته كان عامل للتدهور والضعف، نتيجة عنصر صراع داخلي؛ تمثل في انقسام طائفي بين الأوس

والخزرج من ناحية، واليهود من ناحية أخرى، وقد رأى اليهود من «بتهتهم أن وجود هذا العنصر العربي يمكن أن يكتسب تعاطف عرب الجزيرة معه، فكان أن حدثت الوقبعة بين القبيلتين، وأسهمت قريش بدورها في إشعال الحرب، لضرب يثرب كمركز منافس؛ فوقفنا إلي جوار الأوس يومي معبس ومضرس، لكن توجهات البيت الهاشمي في مكة رأت من مصلحتها محالفة الخزرج، وتوثيق هذا التحالف بعقد الزيجات المباركة. لكن يثرب أخذت في الانهيار السريع أمام القوة المكية الطالعة؛ مما دفع بعقلائها إلي محاولة الإسراع في رآب الصدع؛ بتوحيد المدينة في كتلة سياسية متوحددة تحت حكم ملك واحد يرضي عنه الجميع، وفي هذا الوقت؛ كان كل الرجال المفترض فيهم قدرات الرياسة، والأكثر قبولاً للترشيح للرياسة، وكانوا موضع التبجيل والاحترام وأصحاب كلمه نافذة، قد مات أكثرهم في وقعة بعث بين الأوس والخزرج، ولم يبق سوى الرؤساء الثانويين، ومع ذلك بدأ القوم إنقاذ ما يمكن إنقاذه بالاصطلاح علي رجل منهم، هو (عبد الله بن أبي بن سلول) ولكن الخزرج سرعان ما تراجعت إزاء التطورات الجديدة في مكة وأرسلوا وفودهم إلي ابن أختهم محمد (صلي الله عليه وسلم) في مكة، وقاموا بمحاولة إقناع الأوس بالأمر لما له من وجهة من عدة نواح: الأولى أنه نبي مؤيد من الله وفي ذلك كفالة النصر، والثانية أنه طرف محايد، فلا هو أوسي ولا هو خزرجي، أما الناحية الثالثة والأهم سياسياً واقتصادياً فهي، أنه بخروجه من مكة إليهم يمكنهم بقيادته شن الحرب علي أهل مكة بل قطع خطوطها التجارية مع الشام التي تمر علي المدينة وفي ذلك لا لوم ولا تثريب؛ فهم إنما يتبعون أمر السماء؛ ثم إن قائدهم إنما فرد مكى ومن أهل مكة أنفسهم، ثم إن اليهود كانوا في تمام الرضا عن هذا التوجه، حيث الآيات الكريمة تكرم أنبياء بني إسرائيل وتفضل النسل الإسرائيلي علي العالمين، ثم إن هذا النبي الآتي يصلي إلي الشام قبله اليهود، وأتباعه في المدينة يصلون إلي الشام، بل ويصومون الصيام، كما أنه يؤكد حرية الاعتقاد تماماً، وتؤكد الآيات السماوية التي يحملها ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً قلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ - ٦٢ البقرة، وأن الله يقول لنبيه في آياته الكريمة ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ - ٤٣ المائدة و ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدي ونور﴾ - ٤٤ المائدة وأن النبي محمد (صلي الله عليه وسلم) هو ﴿الذي يجذوبها مكنسها﴾ - ١٥٧ الأعراف، وأنه يخاطبهم بالموحي إليه ﴿...إني رسول الله إليكم التوراة﴾.

مصدقاً لما بين يدي من الذرة... ٦ - الصف. ويلقي الدكتور أحمد الشريف الضوء على الأحداث الآتية بعد سنوات ؛ فيقول: ولقد عالج النبي (صلي الله عليه وسلم) موقف اليهود في براعة وقدرة... تغلب عليه حساسية الموقف التي كانت قائمة، بمخالفة اليهود مع بعض بطون الأوس والخزرج، وكانت هذه المحالفات لا يزال لها أثر في نفوس هذه البطون، فكان لا بد أن يعمل النبي حساساً لهذا الشعور قنري النبي (صلي الله عليه وسلم) يصانع اليهود مرة، ويجادلهم مرة أخرى، ويصير عليهم حتى تحين الفرصة، فيقلم أظفارهم، ثم يري نفسه آخر الأمر مضطراً إلي التخلص منهم نهائياً^(١)، أما الأهم لأهل يثرب جميعاً فهو أن الرسول (صلي الله عليه وسلم) اتخذ من يثرب مركزاً وعاصمة، وقوي قدرتها علي المنافسة مع مكة ؛ فساوي بينها وبين مكة من ناحية القدسية، فأعلنها مدينة محرمة حرمة مكة، أو كما قال: إن لكل نبي حرماً، وإنني حرمت المدينة، كما حرم إبراهيم (صلي الله عليه وسلم) مكة .

المهم إن الأحداث تتابعت في مكة واستمرت المنعة الهاشمية للنبي (صلي الله عليه وسلم) الذي تتبع خطي جده - كما اتبع خطواته إلي حراء من قبل - وأعلن أنه نبي الفطرة الحنفية التي نادي بها الأولون السابقون، ونادي بها عبد المطلب، ومثلما أتى جده الرثي وغته ثلاثاً ليحفر زمزم فقد أتاه جبريل وغته ثلاثاً، وكما اهتم عبد المطلب بتأكيد التحالف مع الأخوال من أهل الحرب في يثرب، اهتم حفيده أيضاً بالأمر ؛ فكان يلقي أهل الحرب اليثارية عند العقبة، إلي أن هياؤا مدينتهم لاستقباله ؛ بعد أن مات عمه أبو طالب، واشتد ضغط الأحلاف علي الهاشميين، وكان الحل أن يغادر إلي الأخوال ليرفع الضغط عن الأعمام، في الوقت الذي كان فيه لجده عبد المطلب مكانة خاصة، وأثر لا يمحي من نفسه ؛ تبرره حميته القتالية عند المعارك التي كانت تدعوه لأن يهتف: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، كأنني به ينادي طيف جده: أي جدي، هأنذا أحقق حلمك !!

وقد ظل دور بني هاشم قائماً إلي ما بعد خروج النبي (صلي الله عليه وسلم) من مكة إلي يثرب، بل إنهم لم يتركوه يغادر إلا بعد أن استوثقوا لمنعه أخواله اليثارية وأطمأنوا إليها، ويظهر ذلك من ذهاب عمه العباس معه - وهو بعد علي دين قومه - للقاء أهل الحرب؛ في بيعة العقبة الكبرى، ولم يذهب - فيما يقول الطبري - إلا لأنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له وكان هو أول المتكلمين في هذا الاجتماع هائل الخطورة الذي شكل علي وجه الزمان منعطفاً حاداً، غير وجه التاريخ تماماً؛

فقال :

يا معشر الخزرج: إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد
منعناه من قومنا؛ ممن هو علي مثل رأينا فيه، فهو في
عزة في قومه، ومنعة في بلده وقد أبي إلا الانحيان إليكم
واللحق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه
إليه، ومانعوه ممن خالفه؛ فأنتم وما تحملتم ذلك، وإن
كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه إليكم، فمن الآن دعوه،
فإنه في عزة في قومه ومنعة في بلده (٢)

ويخبرنا البيهقي أن هذا الوفد العظيم الذي يتكون من سبعين رجلا؛ ممثلين
لأهل المدينة؛ لم يكن بينهم سوى ثلاثة نقباء من الأوس وهم: أسيد بن حضير،
وسعد بن خيثم، وأبو الهيثم بن التيهان، وأنه عندما انتهى النبي (صلي الله عليه
وسلم) من كلامه ووصل إلي القول: أبايعكم علي أن تمنعوني مما منعتم منه
أبناءكم ونساءكم؛ تناول البراء ابن معرور - كبير القوم - يده وقال: نعم والذي
بعثك بالحق نمنعك مما نمنع منه أئزنا؛ فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل
الحرب والحلقة، ورثناها كابرا عن كابر. وهنا اعترض أبو الهيثم ابن التيهان
الأوسي الأمر؛ قائلا: يا رسول الله إن بيننا وبين أقوام حبالا، وإننا قاطعوها؛ فهل
عسيت إن أظهرك الله، أن ترجع إلي قومك وتدعنا؛ فقال رسول الله (صلي الله
عليه وسلم) بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أسالم من سالمتم،
وأحارب من حاربتم.. فأخذ البراء بن معرور بيد رسول الله (صلي الله عليه
وسلم) فضرب عليها، وكان أول من بايع، وتتابع الناس فبايعوا (٣)، ثم أخذ عليه
العباس بن عبد المطلب المواثيق لرسول الله (صلي الله عليه وسلم) بالوفاء، وعظم
العساس الذي بينهم وبين رسول الله (صلي الله عليه وسلم) وذكر أن أم
عبدالمطلب، سلمي بنت عمر بن زيد بن عدي بن النجار (٤).

وقبل أن ينصرفوا، أراد أهل الحرب والحلقة استعراض قدراتهم القتالية
وفنونهم الحربية للنبي صلي الله عليه وسلم؛ فقال له ابن عبادة: إن شئت
لنميلن غداً علي أهل مني بأسيا فنا، فأجل النبي (صلي الله عليه وسلم) الإمالة
بالسيف إلي ما بعد الخروج من مكة بقوله: لم نؤمر بعد (٥) !!

وكانت أهم المهام بعد الهجرة إلي يثرب هي تحرير المدينة، وعقد المعاهدة مع اليهود،

ثم الخروج إلى طريق التجارة لقطعه تماما علي أهل مكة، حتي إن عبد الله بن جحش استحل فيه الشهر الحرام ؛ إعلانا لمكة بانتهاء مقلب في هيكلها الاقتصادي، واستولي علي تجارة لها، وأخذ أسيرين، وقتل عمرو بن الحضرمي؛ فقالت قريش: لقد استحل محمد (صلي الله عليه وسلم) وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه ادم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا الرجال، وأكثر الناس في ذلك، فأنزل الله تعالي علي رسوله (صلي الله عليه وسلم): ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير...﴾ ٢١٧ - البقرة.(١)

أما المهمة الجليلة والعظمي فكانت قيام النبي (صلي الله عليه وسلم) بإنشاء نواة أول دولة عربية إسلامية في الجزيرة، محققا نبوءة جده: إذا أراد الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء، وبهجرته خفت أثقال الاضطهاد عن كاهل الهاشميين مما سمح لهم بالتظاهر بالحياة، ومجاملة بني عمومهم أحيانا، كخروج بعضهم مع قريش إلي بدر، في الوقت الذي كان فيه العباس يسرب لابن أخيه أخبار مكة أولا بأول، لذلك ؛ كان الوفاء النبوي يجلب في نداء النبي (صلي الله عليه وسلم) لرجاله، في غزوة بدر الكبرى، قبل هنيئة من الهجوم علي أهل مكة: إني قد عرفت أن رجلا من بني هاشم وغيرهم، قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدا من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البخثري بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه خرج مستكرها - وإنما نهى الرسول (صلي الله عليه وسلم) عن قتل أبي البخثري بن هشام ؛ لأنه كان أكف الناس عن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) وهو بمكة، وكان لا يؤذيه، ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبت علي بني هاشم وبني المطلب - فقال أبو حذيفة: أنقتل أباءنا وأبنائنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس، والله لئن لقيته لأكمنه السيف، فبلغت رسول الله (صلي الله عليه وسلم) مقالته فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص: أضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟ فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق أبي حذيفة، والله لقد نأق !! فكان أبو حذيفة يقول ما إذا بأمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ (٧).

ويقول الأستاذ أحمد أمين إن النبي (صلي الله عليه وسلم)؛ بعد النصر في بدر ارتحل حتي إذا كان بالروحاء، لقيه المسلمون يهتفون بما فتح الله عليه وعلي من معه من المسلمين؛ فقال لهم سلمة بن سلامة: ما الذي تهتفوننا به ؟ فوالله ما لقينا إلا عجائز صلعاء كالبدن المعلقة، فنحرناهما !! فتبسم رسول الله (صلي الله عليه وسلم) ثم قال: يا ابن أخي أولئك الملأ (٨).

نعم، هكذا انتهى أمر الملأ، أرسستقراطية قريش ورجال الندوة وحملة اللواء !!
وتهيأت الدولة لنشر جناحيها علي أرض العرب، وعلي مكة ذاتها، الأمر الذي دفع
العقاد للقول:

نكاد نقول: إن العرب أقبلت علي الإسلام أفواجا، حين صارت الكعبة إلي يديه
وأصبحت عاصمة العروبة، عاصمة الدين الجديد ولو لم تكن للعرب وحدة معروفة
بينهم قبل البعثة الإسلامية، لما اعتزوا بالبيت الجامع لهم هذا الاعتزاز^(٩).

وهكذا؛ قامت الدولة الإسلامية، بجهود البيت الهاشمي، وفضل لا ينكر لأهل
الحرب والحلقة الثائرة وخطولتهم، لكن ذلك كله لم يفت في عضد الحزب الأموي،
فظل هؤلاء يترقبون الفرص حتي ما بعد اتساع الدولة بالفتوحات، وعندما ستمت
الفرصة اقتنصوها، واستولوا علي الحكم إستيلاء صريحاً بعد أن كان ضمناً
بإستيعاد علي بعد وفاة الرسول، وساعتها تجلت مشاعرهم تجاه بني عمومته في
المجازر الدموية التي راح ضحيتها كل من أيد البيت الهاشمي؛ حتي امتدت يد
الانتقام الحمقاء إلي حفدة المصطفى (صلي الله عليه وسلم) إستئصالاً لهذا البيت
وأهله ووصل بهم حد الهوس إلي ضرب الكعبة المشرفة بالمنجنيق؛ مشاعر عبر عنها
لسان يزيد بن معاوية الأموي (منسوبا إليه عن قصيدة طويلة لابن الزيعري):
لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل^(١٠)

أو كما أورده ابن كثير:

لعبت هاشم بالملك فلا ملك جاء ولا وحي نزل^(١١)

هوامش

- ١ - أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص ٤١٥.
- ٢ - الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٣٦٥.
- ٣ - البيهقي: دلائل النبوة، ج ٢، ص ٤٤٧ و ٤٤٨.
- ٤ - نفسه: ٤٥٤.
- ٥ - الطبري: ج ٢، ص ٣٦٥.
- ٦ - أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ٨.
- ٧ - نفسه: ص ٢٢.
- ٨ - نفسه: ص ٢٥.
- ٩ - العقاد: طوابع البعثة الحمديّة، ص ٦٥.
- ١٠ - محمد القزويني: فاجعة الطف، مطبعة الأهرام، كرناء، ط٢، د.ت، ص ٥.
- ١١ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨، ص ٢٢٧.

مصادر استشهادات البحث

- القرآن الكريم.

- ١ - الأصفهاني: الأغاني، دار الكتب المصرية القاهرة، د. ت.
- ٢ - الألويسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، القاهرة، ١٩٢٤.
- ٣ - ابن حبيب: المحبر، دار الأفاق الجديدة، بيروت د. ت.
- ٤ - ابن الجوزي: تلبيس إبليس، تصحيح محمد منير الدمشقي المطبعة المنيرية.
- ٥ - ابن سعد: الطبقات الكبير، طبعة لندن، ١٩٣٢.
- ٦ - ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، بيروت، د. ت.
- ٧ - ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق د. عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ١٩٨٧.
- ٨ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، لندن، بريل، ١٨٨٦.
- ٩ - ابن هشام: السيرة النبوية تحقيق طه عبد الرؤوف ومحمد محيي، شركة الطباعة الفنية المتحدة، القاهرة، ١٩٧٤.
- ١٠ - أمين، (أحمد) : فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ١٤، ١٩٨٧.
- ١١ - البغدادي: خزائن الأدب، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧.
- ١٢ - البيهقي: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، توثيق د. عبدالمعطي قلعي، دار الريان للتراث، القاهرة، ط ١، ١٩٨٨.
- ١٣ - ثعلب: شرح ديوان زهير، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤.
- ١٤ - الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٤٨.
- ١٥ - الحلبي: السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون إنسان العيون، دار المعرفة.

- بيروت، د. ت.
- ١٦ - الحوت (محمود سليم) في طريق الميثولوجيا عند العرب، دار النهار، بيروت ط٢، ١٩٨٩.
- ١٧ - خليل (خليل أحمد) مضمون الأسطورة في الفكر العربي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٧.
- ١٨ - الزبيدي: تاج العروس، القاهرة، ١٣٠٦ هـ.
- ١٩ - السقاف (إيكار) نحو آفاق أوسع، الأنجلو المصرية، القاهرة د. ت.
- ٢٠ - السهيلي: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ضبط طه عبد الرؤوف، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨.
- ٢١ - الشريف (أحمد إبراهيم) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٢.
- ٢٢ - شلبي (أحمد) السيرة النبوية العطرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ١٢ - ١٩٨٧.
- ٢٣ - الشهرستاني: الملل والنحل: طبعة البابي الحلبي، تحقيق محمد سيد كيلاي، القاهرة ١٩٦١، والمطبعة الأزهرية، القاهرة، ١٩٥١.
- ٢٤ - شيخو (الأب لويس) شعراء النصرانية في الجاهلية، مكتبة الآداب - الحلمية الجديدة - القاهرة، ١٩٨٢.
- ٢٥ - الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، د. ت.
- ٢٦ - العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٣ هـ.
- ٢٧ - العقاد (عباس محمود) إبراهيم أبو الأنبياء، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٧.
- ٢٨ - الخفاد (عبدالله منجوب) طوابع التيجنة النجمية، دار نهضة مصر القاهرة ١٩٧٧.

- ٢٩ - علي (جواد) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العلمي العراقي، بغداد د. ت.
- ٣٠ - العمري (أحمد جمال) الشعراء الحنفاء، دار المعارف القاهرة، ط١، ١٩٨١.
- ٣١ - النقزويني (أحمد) فاجعة الطف، مطبعة الأهرام، كريلاء، ط٩.
- ٣٢ - الكلبي: الأصنام، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٢٤.
- ٣٣ - منقوش (ثريا) التوحيد يمان: التوحيد في تطوره التاريخي، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٧.
- ٣٤ - الهمداني: الإكليل، بغداد، ١٩٣١.

أعمال المؤلف

- ١ - الموجز الفلسفي: دار السياسة الكويتية، الكويت (نقد).
 - ٢ - مشكلات فلسفية: (بالمشاركة مع آخرين)، التربية الكويتية، الكويت.
 - ٣ - أوزيريس وعقيدة الخلود في مصر القديمة.
 - ٤ - الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية.
 - ٥ - النبي إبراهيم والتاريخ المجهول.
 - ٦ - الأسطورة والتراث.
 - ٧ - حروب دولة الرسول «جزء أول».
 - ٨ - إسرائيل: التوراة، التاريخ، التضميل.
 - ٩ - قصة الخلق: منابع سفر التكوين
 - ١٠ - رب الزمان
 - ١١ - حروب دولة الرسول «جزء ثان»
- قيد البحث**
- النبي موسي وآخر أيام تل العمارنة

المحتويات

٥	إهداء
٧	مقدمة
١١	نماذج من الكتابات التي تناولت هذا العمل
١٣	هذه الدراسة
١٥	قضية للمناقشة
٣١	التعدد لا التعدي
٣٩	فضائح الفكر اليساري
٥١	تأسيس (١)
٥٧	تأسيس (٢)
٦٣	الكعيات
٧١	مكة: حلم السيادة
٧٩	قصي بن كلاب؟
٨٧	الصراع علي السلطة بعد قصي
٩٥	بنو هاشم من التكتيك الي الأيديولوجيا
١٠٩	جذور الايديولوجيا الحنفية
١٢٩	ظهور النبي المنتظر
١٣٩	العصبية والسياسة
١٤٧	الدولة
١٥٧	مصادر استشهادات البحث
١٦٠	أعمال المؤلف
١٦١	المحتويات

عربية للطباعة والنشر
١٠٠٧ شارع السلام - أرض اللواء الهندس
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ - ٣٠٣٦٠٩٨

المجلة التاريخية فبراير العدد ١٠٠

قليلة هي القراءات الموضوعية التي حاولت الاقتراب من التاريخ العربي في جزيرة العرب قبل الإسلام ، ونادرة هي المحاولات التي قاربت تاريخية القراءة لتلك الحقبة في ذلك المكان . وكثيرة بل غفيرة تلك الكتابات التي ازدحمت بها المكتبة العربية ، والتي كتبت من على مقعد سلطة الغيب أو سلطة الحاكم أو سلطة المذهب أو سلطة الأيديولوجيا أو سلطة النصوص ، وما أكثر المتفعين . وهذا الكتاب يفتح ملك نافذة على رؤية أخرى بقراءة أخرى لذات المرحلة لكن بالمنهج العلمي وحده ، رافضا أي سلطة على البحث ، واضعا عيناً على الماضي وعينا على الحاضر من أجل تواصل الحاضر مع الماضي وفق منظور تاريخي علمي هادئ ورصين . ورغم كل ما حدث من إثارة عند صدور الطبعات الأولى لهذا الكتاب ، فإنه أبداً لم يهدف إلى الإثارة ، بقدر ما هدف إلى توسيع المجال العلمي في التعامل مع المأثور .

مديبول الصغير



١٤٧/١٠٠

١٧/٠٠

To: www.al-mostafa.com